أركانـــــوم

اسم الرواية: **أركانوم**

اسم المؤلف: **مصطفى جمال**

تدقيق لغوي: **باسم رجب**

تصميم الغلاف: **عبد الرحمن محمد**

إخراج داخلي: **ساندي شريف إبراهيم**

رقم الإيداع: **٢٠٢١/٢٦٦٠**

الترقيم الدولي : **٩٧٨٩٧٧٨٤٤١٩٧٠**

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه
للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

إبهار
للنشر و التوزيع

E-mail: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

مصطفى جمال

أركانـــــوم

قصص قصيرة

إبهار
للنشر و التوزيع

إهداء إلى :

أبطال هذه الحكاية، ولستُ أقصد بقولي هذا مَن جابهوا الويلات والغموض في قصصهم، وإنما أشير لمِن ظهِروا ثم اختفوا فجأة دون مقدمات، من تركونا في حيرتنا لا نعرف عنهم شيئًا، لهؤلاء المجهولين، الغامضين، الهاربين من الظلامِ، الذين أضافوا مذاقًا حارًا للعمل ما بين رَجفَة وصرخاتٍ أليمة....

شكرًا لكم أيُها السادة..

"المقدمة"

عزيزي الراحل..

ولا تتعجب من كوني أنعتك بالراحل فكما تعلم كُلنا راحلون، لن يبقَ على الأرض من بَشَر، لذا رغبتُ أن أنوه لك بهذه اللفظة حتى لا تتشبث بالحياة كثيرًا، صدقني لا يوجد ما يدعوك لهذا الأمل كما تظن..

والأهم من هذا أن هناك أمورًا غامضة ربما تكون قد جابهتها يومًا ما وربما لم يأتِ موعك بعد، لكنها ستحدث لك ولو بعد حين، وستقضي عليك لا محالة..

هذه الأمور هي ما أتحدث عنه في الوريقات التالية لهذه المقدمة التي أحاول فيها أن أكون على قدرٍ كافٍ من العُمق والغموض لتُثير فضولك، ولكنها في حقيقة الأمر سخيفة إلى الحد أنني كاتبها ولا أطيق قراءتها مجددًا، لهذا حاول أن تتلاشى الملل الذي يصيبك هذه اللحظة وأن تعتصر كما يقولون رطلًا من الليمون على رأسك حتى تنتهي من هذه المقدمة البالية..

أود أن أخبرك أنني لم أكتب هذه المجموعة بغرض أن تنال مقامًا راقيًا في عالم ما وراء الطبيعة أو ما ندعوه بالغيبيات، لا أنوّي أن أحصل على جائزة الكون التشجيعية تقديرًا لعملي هذا، والذي هو تقليدي أكثر من اللازم، فرجاء لا تحاول التواصل معي بعد انتهائك من القراءة لتُثني على مسامعي بِضع كلمات الشكر والامتنان لما قدمته لك ولغيرك، كُن واقعيًا وكفاك مُجاملة بلهاء.

أود أيضًا أن أنوه لأصحاب التفكير النقدي ومُدمني القراءات المفيدة، رُفقاء المجلدات الضخمة التراثية، أن هذا العمل لا يحمل لكم مِثقال ذرة من نفع، لا يوجد به معلومات غيبية تفيدكم في أبحاثكم المعقدة، لم أذكر مقتطفات كنت تبحث عنها لأعوامٍ طوال، حتى أنني عندما وجدت إحدى القصص المذكورة تحمل بعض التفكير وتحتاج لتفسيرٍ علمي قمت على الفور بحذفها لأستبدلها بأخرى سخيفة، تحمل بعض الكلمات المرعبة وانتهينا إلى هذا الحَد، لذا أعترف لكم أن عملي هذا لهو صُنِع فقط من أجل المتعة، للقراءة الساخرة ثم تنتهوا منه سريعًا وتذهبوا لقضاء أوقاتكم بين كتيبات حقيقية، تتفاخروا أنكم قرأتموها يومًا..

أخيرًا يا عزيزي..

داخل هذه القصص لا شيء سوى الفزع، الصرخات الأليمة، أمورًا غامضة سردتُها بشخصي ولا أدري كيف وصلت لي، ولهذا أنصحك ألا تقرأه قبل النوم، لا تقرأه وأنت وحدك، لا تُلقيه على مسامع الصغار، لا تحكيه بالأخص للفتيات حتى لا تعيش بِضع دقائق سخيفة من أساليبهن في إظهار

رجفتهن، لا تقرأه لأصحاب الأمراض المُزمنة، أصحاب الظل الخفيف، من يملكون قلوبًا ضعيفة لا تتحمل المفاجآت...

لا تقرأه في الأساس!

اقبل أسفي على تضييع وقتك في هذه المقدمة، ولكني كتبتها لأُبرئ ذِمتي من أموالك التي أنفقتها لشراء هذا العمل، وإن كنت تقرأ هذه الكلمات للتطلع قبل الشراء، فأموالك حلالًا يا هذا، لا تُبددها على الهراء.

اقتنيت العمل بالفعل؟!

أعتذر منك

إلى اللقاء.

إمضاء

مصطفى جمال

***

وحتى بزوغ ضوء الفجر في موسم الصيف، لكن الأمر يختلف حينما نعايش فصلًا شديدًا كهذا، في الشتاء يعم الصمت الشوارع مبكرًا، لا تجد من يتهامس من الجيران كما المعتاد، لا يصل لأذنيك حتى أصوات السيارات التي تؤرقك وهي تعبر أسفل نافذة غرفتك المطلة على الطريق الرئيسي في منتصف الليل، حتى الكلاب.. هذه المخلوقات التي تطقن دورًا واحدًا طوال عمرها ألا وهي ان تنبح تباعًا حتى تيقظك من ثباتك العميق، لتنهض بدورك وتسب اللعنات لهم، والغريب أنهم يهدئوا فور استيقاظك، وكأنهم أتموا مهمتهم على أكمل وجه، هذه الكلاب لا حثيث لنباحها في مثل هذه الليالي الشتوية، فقط صوت الهواء العاصف الذي تهتز له النوافذ بقوة، ليتخلل قليلًا منه داخل غرفتك ثم أسفل غطائك ليداعب أصابع قدميك التي تكاد أن تتجمد، حقًا فصل الشتاء لهو قاسٍ ولا تملك شيئًا في مواجهته سوى النوم مدثرًا بغطائك، فهو لم يُخلَق لأن تسهر فيه الناس وتستمتع بالساعات الأخيرة من لياليه المظلمة.....

تمامًا كما هو حالي الآن، فأنا وللأسف من هذه الفئة المتمردة والساهرة.

الآن وقد دقت عقارب الساعة على الثالثة فجرًا لم يعد أمامي سوى بضع سويعات حتى أستيقظ وأترجل إلى عملي، أغلقت شاشة هاتفي بعد أن أنهيت تصفح بريدي الإليكتروني لأعرف ما يدور من حولي في هذا العالم، لأضع الهاتف جانبي على الطاولة ثم أغلق قابس الكهرباء ليعم السكون الغرفة، أدثر أسفل غطائي الثقيل محاولًا نفض أي أفكار تؤرق نومتي، بضع دقائق قليلة حتى ذهبت في ثباتٍ عميق، لم أشعر بنفسي سوى عندما أنصتّ أذناي لصوتٍ خافت يتحرك قرب الفراش في الظلام، لم اعطه

تركيزًا فلقد كان النوم تملك مني ولم أعد قادرًا على الخلاص منه لأي سببٍ كان، أكملت نومي محاولًا من جديد حتى مر وقتًا لم أعي مقداره لأجد هذه المرة ذات الحركة الخافتة بجواري، حينها شعيرات جسدي انتفضت في رجفة

(١)

ليالي الشتاء دائمًا ما تكون كئيبة على أولئك المستيقظين حتى وقت متأخر، هؤلاء القوم لطالما يشعرون بالوحدة القاتلة، ذلك السكون الذي يمزق أرواحهم، هؤلاء القوم هم من اعتادوا على السهر للساعات الأخيرة من آناء الليل حقيقية، أيقنت أنني لا أحلم فور أن فتحت عيناي على مصراعيهما أسفل الغطاء الثقيل.....

اللعنة على هذا الصقيع وهذا المدعو الشتاء الذي يجبرني على الإدثار من أعلى رأسي وحتى أخمص قدماي لأجهل كل ما يدور داخل غرفتي!

ظللت هكذا صامتًا أتنفس بارتجاف والحركة الخافتة لم تهدأ بعد، ليس لدي حيلة سوى أن أكشف وجهي وأعرف ما يجري، رفعت أطراف أصابعي بهوادة لأزيح الغطاء عن عيناي محدقًا في الظلام الكامن بالغرفة أمامي، السواد يحجب رؤيتي فليس هناك ما أتبين ملامحه، قلبي يتواثب فزعًا ولا زالت الحركة الخافتة تصدر حثيثها حتى تمالكت أعصابي

ومددت كفي تجاه القابس جواري وأضأته، فور أن اشتعل النور لم أجد شيئًا بالغرفة غريب سوى أن هاتفي سقط أرضًا....

لحظة وقوعه جعلت دمي يتجمد بعروقي، ليس هناك مبرر لانزلاقه من أعلى الطاولة هكذا، رغم هذا لم يكن هو سبب قلقي الرئيسي، فلقد بحثت بعيناي في أرجاء الغرفة ولم أجد ما يثير الريبة أو حتى يصدر هذه الحركة الخافتة التي صمتت تمامًا، فقط وضعت الهاتف الساقط أرضًا أعلى الطاولة مجددًا وأطفئت القابس لأغط في نومٍ عميق حتى الصباح.

مرت الساعات المتبقية من الليل سريعًا دون أي شيء يذكر حتى أيقظني صوت منبه هاتفي المزعج لأفتح جفوني في تثاقل، أنفض الغطاء عني فلو لم يضربني صقيع الصباح لن أذهب إلى عملي اليوم، بل لن أبرح رقدتي أبدًا، تحاملت على نفسي لأعتدل جالسًا، ثوانٍ أظل ثابتًا في مكاني أتثاءب عدة مرات حتى أستيقظ فعليًا، كما حال الجميع هذه الأيام أول ما أقوم به بعد فتح جفوني هو التقاط هاتفي الخلوي من أعلى الطاولة، كما هو منذ أن وضعته بالأمس لألقي نظرة خاطفة على صفحتي الشخصية سريعًا قبل النهوض، ولكن ما أفاقني أني وجدت كاميرا الهاتف مفعلة وكأنني كنت أستخدمها قبل إغلاقه، دلفت بقليل من التركيز داخل ملف الصور لأشخص ببصري فاغرًا فاهي دون النطق بأي حرف..

وجدت صورًا تم التقاطها لي وأنا نائم، لم أصدق ما أراه فأنا لم أخذ هذه الصور لنفسي بالتأكيد، خصوصًا أني كنت في وضعية لا تسمح لي بإمساك الهاتف والتقاطها بهذا الشكل، قلبتها سريعًا بإصبعي لأجدني أرتدي نفس

زيي المنزلي الذي أرتديه الآن، نفس غرفتي، فراشي وغطائي، أنا هو ذاك النائم دون اكتراث داخل الصور، لأدلف إلى خصائص إحدى الصور فأجد تاريخ التقاطها منذ ساعات!

هذا يعني أنها قد صُوِرَت بالأمس وأنا أغط في نومي، كل هذا على الرغم من غرابته إلا أن الشيء الوحيد الذي أثار فزعي بحق..

أنني أعيش وحيدًا بالمنزل.

***

(٢)

كم هي جميلة إلى هذا الحزن الذي يأسرني، لها بشرة ناصعة البياض يتخللها بعض النمش البني الهادئ يتناثر على وجنتيها ليزيدها تألقًا، ثغرها الباسم يجعل قلبي يتراقص فرحًا عندما تحنو علي بمثل هذه الضحكة الطفولية، كنت دومًا أشاهدها في الحي الذي أقطن فيه، منذ قدومها للوهلة الأولى لتسكن بالبناية التي تبعد عن بنايتي عدة أمتار وأنا أتابعها دومًا، أنتظر خروجها كل صباح إلى الشرفة لأتابع ظهورها المحبب لقلبي وأبدأ بها يومي، بل إنني أُصيبت بداء المراهقة حتى أمسيت أتلصص عليها من خلف فتحات نافذتي المغلقة، أمعن النظر تجاه غرفتها حتى يتسنى لي رؤيتها دون أن تراني، رغم هذا أشعر دومًا أنها تراني، في بعض الأحايين كانت تنظر تجاهي وأنا أراقبها من خلف النافذة وتبتسم بهدوء وجمال يذيبان قلبي.

ظللت على هذا المنوال لقرابة أسابيع دون أن أسعى خطوة تجاهها، فقط أكتفي بالتلصص عليها كل ليلة، أبتسم في وجهها عندما نتقابل في الحي

حتى أصبحت متعلقًا بها حد الجنون، أتمنى فقط لو أجد سبيلًا واحدًا للقُرب منها، كانت هذه أمنيتي طوال فترة تعلقي بها وحتى الأسبوع الماضي.

كنت عائدًا من دوامي الذي ينتهي في منتصف الليل، دلفت إلى الحي الذي أقطن به، كعادته صامتًا، هادئًا جدًّا كأنه مهجور عن بني البشر، وأنا في طريقي إلى بنايتي لم أكن قادرًا على التفكير أو القيام بأي شيء هذه الليلة كالنظر إليها أو الوقوف أسفل شرفتها متعللًا تدخين سيجارتي في لا مبالاة كما أفعل في الليالي الماضية، بل إنني أحمل على كتفي أطنانًا من الإرهاق إثر عملي وأحتاج إلى بضع ساعات من النوم المكثف الهادئ دون انقطاع حتى أسترد عافيتي لليوم التالي، سرت تجاه البناية حتى مررت أسفل شرفتها وسمعت صوتًا حانيًا يهمس ناطقًا باسمي، لم أعطِ بالًا في المرة الأولى لأسير مكملًا طريقي دون اكتراث، فالتعب كان قد حل بي فعلًا وأنتظر بشوق لرؤية الفراش العزيز حتى أرتمي عليه، عندما وصلت إلى شقتي دلفت فورًا إلى الغرفة لأنزع ثيابي عني بينما ألقي نظرة خاطفة من نافذتي المفتوحة على مصراعيها، لأجد فتاتي المدللة تقف ناظرة ناحيتي بقميص نومها الذي يظهر أكثر مما يخفي، حينها طار النوم من جفوني لأشخص ببصري تجاهها في نهم، فقلد كان ضوء غرفتها يكشف ثناياها التي لم أرى في جمالها من قبل حتى تأججت النيران في نفسي، لأقف قرابة النصف ساعة على هذا الحال الذي يُرثى له دون اكتراث وأنا أتصبب عرقًا من فرط نشوتي، أحلم لو أني أنال من عبق رائحتها وأحتضنها ولو لمرة واحدة، تلك الغانية التي تستعر رجولتي لهبًا بما منحها الخلاق من جسدٍ

بض يشبه الحوريات، أنا لم أرى الحوريات من قبل ولكن أوقن في قرارة نفسي أنهن لن يزدن جمالًا على هذا الجمال أبدًا، لتسترقني من تخيلاتي وتدلف إلى غرفتها ثم تطفئ النور ليغطي الظلام كل شيء، رجعت سريعًا إلى واقعي المرير حتى أنني لم أكمل نزع ثيابي عن جسدي ثم ارتميت فورًا على الفراش لأغط في ثباتٍ عميق حتى صباح اليوم التالي.

مرت الأيام التالية رتيبة ليس بها ما يشغل بالي، لم أعد أراها مثلما يحدث كل يوم، في غالب الأوقات كل صباح أراها بالحي تقف لشراء بضع حاجيات لها لتدلف عائدة إلى بنايتها، ثم أراها بالمساء من خلف نافذتي بأرديتها التي تلهب جسدي وتثير شهوتي حتى أكاد أن أنفجر، ولكن للأسف كل هذا اختفى أدراج الرياح ولم أرها ولو لمرة واحدة منذ اللقاء الأخير من نافذة غرفتي، حتى جاءت ليلة الأمس محملة بما أبتغيه..

وأنا في طريقي إلى بنايتي وبمجرد أن عبرت أسفل شرفتها وجدت ذاك الهمس من صاحبة الصوت الرقيق ينادي باسمي في فنجٍّ، لم أقدر هذه المرة على كبح جماحي وتجاهلها لذا نظرت لأعلى ثم رأيتها، إنها تلك الفتاة العشرينية الجميلة صاحبة القوام الممشوق والشعر الناعم الفحمي كسواد الليل يرتمي على كتفيها، ترتدي قميص نومها المثير يكاد أن يلهب نشوة رجال الأرض جميعًا في إطلالة خاطفة منها، كانت تقف منحنية أعلى سور شرفتها ناظرة تجاهي، كان صوتها لا يقل جمالًا عن جسدها ووجهها الذي لم أرى مثيلًا له من قبل، تهمس بصوتها الرائق الحاني ليأتي اسمي على مسامعي كأني أسمعه للمرة الأولى في حياتي، أتعجب من كونها تحادثني هذه المرة وأنا الذي فعلت كل ما بوسعي حتى أنال القرب منها ولم

يحدث، لقد سألت عنها بائعي الحي لكن لم يتعرف عليها أحد، ربما شعروا بسوء تجاه سؤالي فأخبروني أنهم لم يروها من قبل ولم تأتِ إليهم من تحمل هذه المواصفات، كنت أجلس بشرفتي لساعات حتى تدلف هي خارج شرفتها وتبتسم لي ثم تذهب للداخل وتظلم كل شيء، أهيم عشقًا عندما تسير في الحي وأحدق فيها بعيناي لتنظر لي باسمة بثقة ثم ترحل دون حديث، لكني لم أستطع أن أحادثها أبدًا، وها هي الآن تلقي على مسامعي بصوتها وتمنحني الفرصة التي لطالما تمنيتها منذ أن أقبلت.

لا تزال تبتسم لي من أعلى ثم تنظر حولها لتتأكد من عدم مراقبة أحد الساكنين لما يجري الآن، تعود بنظرها مطمئنة لتحثني على الدخول من باب البناية والصعود إليها، في بداية الأمر شعرت بالقلق حيال هذا، فلو صعدت وأحد الجيران علم بي ستحدث مصيبة طبيرة أنا في غنى عنها، ولكنها ظلت تنظر لي بحب وتوسل حتى أصعد سريعًا قبل أن يرانا أحد فلم أستطع المقاومة لأهم بالدخول إلى البناية وإغلاق الباب من خلفي، لم تكن تبعد كثيرًا عن الشارع فقلد كانت تقطن بالدور الثالث مثلي تمامًا، بضع خطوات على الدرج حتى وصلت إليها لأجد بابها مغلقًا، وقفت لألتقط أنفاسي المتلاحقة سريعًا وقبل أن أهم بالطرق وجدت الباب ينفرج أمامي في هدوء، لأنظر سريعًا على الأدوار العليا من المنزل لأتأكد أنه لم يشعر بي أحد من الجيران ثم دلفت داخل شقتها وأغلقت الباب في هدوء.

غريب هذا الأمر!

شقتها تحتوي على بعض قطع الأثاث المغطى بالملاءات البيضاء قديمًا والتي تحولت إلى الرمادية من كثرة الغبار الذي يرقد أعلاها، الغرف مغلقة جميعًا إلا غرفتها التي تطل منها على الشرفة وأراها من خلف نافذتي، أترك هذه الكآبة التي تعم المكان وأدلف إلى الغرفة المضيئة، خيوط العناكب تملأها بشكل كثيف وكأن الشقة مهجورة لا يسكنها بشر، كيف لها أن تعيش في مثل هذه القذارة، لأجدها واقفة تنظر بثبات من شرفتها موجهة ظهرها لي، اقتربت منها بضع خطوات أهمس لتدير وجهها لي لكنها تجاهلت ذلك، في الواقع تجاهل كل هذا العفن الذي يقبع من حولي الآن، نفضت عن عقلي شتى الأسئلة التي تعج به في ذلك الوقت ولم أبالي سوى بأنني وأخيرًا سوف أظفر بها، مجرد أن حركت قدمي خطوة أخرى لأقترب منها أكثر وجدتها تلقي بنفسها من أعلى السور دون نطق بينما انصعق قلبي حتى لم يقدر على تقبل ما جرى الآن، ظللت ثابتًا مكاني للحظات دون حراك أحاول أن أستوعب ما جرى، ثم تحاملت على نفسي لأهرول إلى الشرفة ناظرًا لأسفل، وجدتها ساقطة على وجهها مخلفة بركة دماء صغيرة أسفل رأسها، هممت سريعًا تاركًا الشقة مهرولًا لأسفل حتى وصلت لباب البناية الرئيسي، فور أن فتحته لم أجد أي شيء، الشارع خالي تمامًا، لا جثة، لا دماء، لا أثر لما رأته عيني من أعلى الشرفة، تحركت وكاد قلبي أن ينخلع من جوفه إثر هذا الفزع الذي ألم به، أسير فوق البقعة التي من المفترض أنها سقطت فيها..

نظيفة تماما!

أنظر لأعلى فأجد الشرفة خالية، مظلمة، لا حركة بها، ولكني لم أغلق نور الغرفة من خلفي، وكأنني كنت أحلم بكل هذا، أطلقت قدماي للريح وهرولت مرتجفًا إلى بنايتي، صعدت الدرج في لحظات قليلة ثم دلفت إلى غرفتي، لم أجرؤ على النظر من النافذة تجاه غرفتها، فقط ألقيت بجسدي على الفراش وادثرت بالغطاء محاولًا تهدئة روعي وأنفاسي المتلاحقة، ولا يزال عقلي لا يقوى على استيعاب كل هذه الصدمات مرة واحدة، حتى وجدت نفسي نائمًا من كثرة ما أصاب قلبي من خيفة حتى اليوم التالي، بل حتى هذه اللحظة التي أحكي فيها.

استيقظت من نومي منذ ساعات قليلة والصداع يكاد يفتك برأسي، ترجلت مترنحًا من أعلى الفراش لأجد أنني نمت بملابسي الخارجية، بل حتى بحذائي، قمت مترنحًا وخلعتهم عني واتجهت إلى المرحاض لأنعم بحمام ساخن يعيد تركيزي إلي، بعد أن خرجت وأنا أحاول تذكر ما مر بي في الأمس لأجد أنني نمت من وقتها وحتى مساء اليوم، لم أشعر بالمنبه ولا وقت دوامي، اختلست النظرات سريعًا من فتحات نافذتي تجاه غرفتها لأجدها مظلمة تمامًا حتى اطمأننت أنني فعلًا كنت أهذي ليلة أمس، فتحت النافذة على مصراعيها لأجدها واقفة أمامي من الشرفة بذات القميص العاري وابتسامتها الحانية، تنظر لي برغبة صارخة، لم أصدق ما أراه ليترك السلام قلبي ويحل محله الفزع المقيم، يعود كل شيء حدث بالأمس لذاكراتي ويُعاد كشريط سينمائي أمام ناظري، تجمدت في مكاني شاخصًا ببصري فيها حتى وجدتها تهمس بصوتها الحاني، صوتها قريب كأنها تقف بجواري رغم بعد المسافة بيننا لتقول جملة واحدة:-"أنا قادمة إليك!".

***

(٣)

كم أكره أعطال شبكات الهاتف!

بدأ الأمر منذ أن ابتعت ذاك المنزل في هذه المنطقة النائية، فأنا أكره الزحام بطبعي والمدينة هذه الفترة أصبحت مليئة بالضجيج ومكدسة بالبشر في كل حدبٍ وصوب، لذا قررت البحث مطولًا عن منزل يقبع على أطراف المدينة في منأى تمامًا عن هذا الزحام الخنيق الذي لا ينتهي ليلًا أو نهارًا حتى عثرت على هذا المنزل، تقابلت مع صاحبه وهو بالمناسبة ليس من أهل المدينة وإنما كان يقيم بها لفترة وينتظر بيع هذا المنزل لظرفٍ ما خاص به ولا يعنيني ليعود إلى موطنه من جديد والذي أجهله أيضًا، رجل وقور شارف على البدء في عقده الخامس، له هيبة واشتعل الشيب برأسه مما يزيد من وقاره وتقديري له، رغم ملامحه الحادة إلا أنه يملك وجهًا في العام بشوشًا، تقابلت معه منذ فترة واتفقنا على السعر وأني سأحصل على المنزل وبدوره سيتنازل عن أثاثه البسيط كهدية منه لأني لم أماطل معه في السعر والذي يُعَد باهظًا بعض الشيء، فرحت جدًّا بهذا العرض المُرضي لي

خصوصًا أن المنزل رغم قدمه – والذي عرفت أن الرجل اشتراه من آخر أيضًا – إلا أنه لا يزال يحتفظ برونقه وطلاؤه الهادئ الذي يريح الأعين، كما أنه بالداخل ليس بالكبير جدًّا وإنما يتكون من طابقين وباحة خلفية مطلة على الفراغ من حوله والمحبب لنفسي، فأقرب منطقة سكنية تبعد عنه مسافة ما يقرب من الثلاثة كيلومترات، هنا الهدوء يكفي لأن يريح أعصابي من هذا الصخب الذي أمقته بطبيعتي.

مما زاد الأمر جمالًا أنني أعيش بمفردي وهي فرصة لأنعم بكل ركن داخل هذا المنزل دون رفيق أو زوجة ينغصا على أمتع لحظات حياتي، فحتمًا أحدهم سيسعى لترتيب هذه الغرفة وتنظيف هذا الركن، لكن وبما أنني بمفردي فلدي مطلق الحرية أن ألهو كما أشاء دون رقابة من أحد، أنظف متى يحلو لي وأنشر القاذورات من ملابس متسخة وبقايا طعام بشتى الأركان متى يحلو لي أيضًا.

بطبيعة عملي أنا لا أقيم كثيرًا بالمنزل، فأنا طبيب وفي معظم الأوقات أبقى بالمشفى لأيام متتالية نظرًا لأني أستقبل حالات الطوارئ والتي بدورها لا تنتهي أبدًا، وكأن الجميع يصاب بالحوادث في فترة مناوبتي، فعندما أعود إلى المنزل يكون فقط من أجل أخذ حمامًا ساخنًا وقسطًا من النوم، ناهيك أني لم أهتم بإكمال أثاثه القليل الذي لا يزيد عن طاولة وتلفاز وأريكة بالدور السفلي، وفراش وخزانة ملابس بالأعلى، فهذه القطع تعد الأساسية بالنسبة لي في المنزل ولا أحتاج للمزيد، بعض الأوقات تأتي لأستمتع فيها بمشاهدة التلفاز عندما أحصل على يوم أو اثنين على الأكثر إجازة من مناوباتي، الشيء الوحيد الذي سعيت له هو شبكة الهاتف الأرضي وذلك

لأني أحيانًا أنسى هاتفي الجوال أو أضعه على الوضع الصامت ولا أتناوله إلا حين أتذكر أني أملكه بالأساس، فكان يجب علي أن أصلح الهاتف الأرضي حتى يتسنى لإدارة المشفى التواصل معي ما إذا جرى أي طارئ، وهو الشيء الوحيد الذي حاول المالك القديم ألا أسعى إليه معللًا أن الهواتف لا تعمل في مثل هذه المنطقة.

كم أكره أعطال شبكات الهاتف!

لذا قررت التوجه لمصلحة الهواتف مقدمًا طلب بأني أريد إعادة تصليح الأسلاك وبالفعل بعدها بيومين قاموا بزيارتي وإيصال الأسلاك المنفصلة ببعضها مع عرض هاتف جديد لي ولكني رغبت في القديم كما هو بشرط أن يظل بغرفة نومي فقط وألا يتم إيصال أي هواتف أخرى بالمنزل بناءً على رغبتي، ولكنهم أخبروني أن الحرارة ستأخذ وقتًا حتى تصل إلي خصوصًا أنني في منأى عن التجمعات السكنية وذلك سيحتاج لأسابيع حتى يقوموا بتوصيلي لأقرب فرع لأسلاك الهواتف الأرضية، ربما هذا أفضل من لا شيء لذا وافقت وتركتهم ينهوا عملهم في أريحية، كان ذلك منذ أسبوع تقريبًا حتى لم يمر يومين على تركيب الهاتف ووجدته يوقظني من نومي في المساء برنينه المزعج، تحاملت على نفسي وجفوني مثقلة لأمد كفي وأرفع السماعة على أذني، صوت همس مبهم وضعيف للغاية بينما أتثاءب وأنا أرد:

-ألو.. ألو؟

ثم عم الصمت تمامًا فأغلقت السماعة وعدت لنومي، لم أعر اهتمامًا بعدها حتى في اليوم التالي تكرر نفس الأمر ورن الهاتف في المساء ليوقظني مجددًا..

-ألو.. ألو.. من هناك؟

ذات الهمس الغير واضح ثم صمت تام، تعجبت من كون المصلحة أخبرتني أنه سيأخذ أسابيع حتى يعمل ثم بدأ الرنين من اليوم التالي، لكني في قرارة نفسي كنت ممتنًّا لهم على هذا الجد، ربما هذا الهمس الذي يحدث لهو بداية ثبات الشبكة بمنطقتي المنعزلة.

انتهى اليوم التالي والذي يليه ولم يرن الهاتف من جديد حتى كنت أشاهد التلفاز ذات ليلة ورن بصوته المزعج في الأعلى، تحركت سريعًا فربما يكون من طوارئ المشفى، رفعت السماعة:

-ألو....

همس يشبه من يتحدث وهو نائم أو شخص مصاب بالزكام فلا يستطيع توضيح معالم حديثه، لكنه رخيم وثقيل جدًّا، لم أتبين من همسه سوى كلمة واحدة..

-ارحل!

تعجبت من المكالمة بعد انتهائها ولكني كذبت مسامعي وقررت الذهاب للمصلحة في الصباح، عندما حدثتهم في اليوم التالي أخبروني أنهم لم يقوموا بإيصال شبكة الهاتف بعد، بل إنهم لم يعملوا عليها من الأساس وأن الأمر كانوا يتوقعون أنه سيأخذ أسابيع قليلة لكن منطقتي الذي أقطن بها القمر

الصناعي ضعيف جدًّا لالتقاطها وهذا غريب عنهم، مما يجعل الشبكات بشتى أنواعها لا تصل لهذه البقعة، وحتى إن وصلت لن تكون بالجودة العالية التي أتوقعها.

كم أكره أعطال شبكات الهاتف!

رحلت من المصلحة شاكرًا سعيهم وتوضيحهم لي، لم أذكر تفاصيل المكالمة التي جرت فبالتأكيد ليس لديهم إجابة لهذا الأمر، بل سيزيد هذا من قلقهم تجاهي، فالحرارة لم تصل بعد وهذا يعني أن الهاتف ما هو إلا قطعة خردة معدنية لا روح فيها، فقط ستظل ساكنة هكذا لأمٍّ بعيد.

عدت إلى منزلي وفور دخولي من الباب وجدت الرنين ذاته يصدح بالأعلى، هرولت تجاهه وأنا أجيب بغيظ:

-من أنت.. وماذا تريد؟

يعم الصمت المستفز لثوانٍ ثقيلة ثم يهم بالرد:

-ارحل عن المنزل!

ثم ينغلق الهاتف قبل أن أنطق ببنت شفهة ليتركني غارقًا في تساؤلاتي التي لا تهدأ، شعرت حينها وكأن هناك من يعبث معي بالمصلحة، فهذا هو الحل الوحيد الذي يلجأ إليه عقلي، لذا قررت أن يرن الهاتف للمرة التالية لأوبخهم كاشفًا لهم لعبتهم الحمقاء.

ظل الهاتف صامتًا حتى آخر اليوم لأنعم بالسكينة التي أرغب فيها والتي حُرِمت منها منذ أن قررت إصلاح هذا الهاتف اللعين، عم المساء منذ

ساعات ورحلت في ثباتي ليوقظني من رقدتي الرنين ذاته لأهب من نومتي مفزوعًا أجيب في ضيق:

-لقد كشفت لعبتكم.. سأبلغ الشرطة

الصمت ثم ذات الصوت الرخيم الذي لا ينتمي لحنجرة بشرية بالمرة، يتحدث بكلمات مقتضبة:

-أخبرتك أن ترحل.. هذا هو التحذير الأخير لك!

لا أعرف لماذا دب الخوف بجوفي لأسحب سلك الهاتف من خلف الفراش فأجده ممزقًا، وقتها امتلأ جبيني بقطرات العرق الغزيرة وأنا صامت تمامًا، بينما يردف الصوت ذاته وكأنه يراني:

-لا تتعجب.. ارحل على الفور!

ثم انغلق الخط.

***

(٤)

كم أنا سعيدة هذه الأيام، فلقد أكرمني ربي أخيرًا وأصبحت حُبلى، لم أصدق منذ ثلاثة أشهر عندما شعرت ببوادر الحمل فبدأت أبتعد عن تناول العديد من الأطعمة، أشعر بالغثيان معظم الأوقات وأتقيأ أي شيء يدخل جوفي، وتأكد حسي عندما رغبت نفسي في تناول الموز، كنت أشتمه في منخاري طوال الوقت، أتلهف عليه، عندما أراه معلقًا عند بائعي الفاكهة يسيل لعابي عليه حتى أنني كنت أتناول معظم طعامي اليومي من أصابع الموز الشهية، وهذا ما يطلقون عليه الوَحَم، عندما زرت الطبيب وأخبرني بهذا النبأ السار لم أستطع كبح جماح فرحتي بهذا المولود الجميل، حتى أن الطبيب تعجب وقتها ونظر لي بضع نظرات متشككة لا أدري كنهها، لكنني تجاهلت كل هذا واتجهت إلى منزلي وأنا في قمة الحمد لما مَن علي الله به.

بقيت الأشهر الماضية أحاول الاطلاع على كل ما هو يخص حديثي الحمل على صفحات التواصل الاجتماعي، أقرأ المقالات الطبية، أراسل

بعض الصديقات اللاتي مررن بمثل هذه التجربة من قبل ليمنحوني خبراتهم السابقة والتي هي أهم لدي الآن من أي شيءٍ آخر، رغم تعجبهم مني إلا أن هذا لم يشغل بالي أبدًا، لهم العذر في هذا فأنا لا زلت صغيرة على أنجب سريعًا وأغلب الظن أنه كان من الأفضل لو أني تمهلت قليلًا، لكن من هي تلك الحمقاء الناقمة التي ترفض أن تُرزق برضيع يؤنس وحدتها مثلي، فأنا أمر بحياة روتينية صعبة، ليس لي أقارب ولا أصدقاء يمكنني مجالستهم طويلًا أو حتى يشاركني مصاعب الحياة، فقط عملي ومنزلي الذي يأويني، وهذا الطفل الجميل الذي أتى بمثابة اعتذار العالم عن وحدتي القاتلة التي تمزق روحي، فأنا الآن لن أعود لتربية الحيوانات الأليفة كما كنت سابقًا.

كان الأمر يسيرًا في الأسابيع الأولى من الحمل، لا شيء يُذكر سوى الغثيان وقد انتهى أمره، لكن هذه الفترة وقد قاربت على إنهاء الشهر الثالث لي باءت بصعوبات ثقيلة علي، فالطفل بدأ يتكون داخل رَحمي سريعًا وهذا ما جعل الطبيب يشخص ببصره في شاشة السونار عندما رآه وأكد أنه صبي، أنا لا أفهم في مثل هذه الأمور الدقيقة ولكن حينما سألته عن سر دهشته البادية على وجهه هذه أخبرني أنه لا يمكن أن ينمو الطفل بهذه السرعة أبدأ، خصوصًا وأن الشهور الأولى يكون الجنين ذو حجم صغير جدًّا لا يكاد يغير من حجم الرحم وانتفاخ جوف البطن هكذا، إلا أنني الآن منتفخة البطن كأني قاربت على الشهر التاسع لي مما جعلني لم أعد قادرة على التحرك كثيرًا أو الميل للأمام، إضافة إلى ركلات ابني التي لا تنتهي أبدًا،

هذا المشاغب يبدو أنه يسعى لكثير من الهرج منذ الوهلة الأولى في رَحمي وحتى يخرج للعالم..

كم أحبه.

منذ أيام قليلة أصبحت أرى بعض الأحلام التي أجد نفسي فيها أجلس بمكان هادئ كالصحاري وضوء القمر الخافت يلمع في الأفق منيرًا المحيط من حولي، مع بعض القوم الصامتين من حولي الذين ينظرون لي باسمين ولكن لا أتبين ملامحهم، أجد راحة نفسية غريبة في هذا المكان رغم جهلي بموقعه، حتى أنني لم أزره من قبل حتى أحلم به، فقط أجلس متربعة على الرمال الناعمة مبتسمة في سكينة وأحمل بين يداي رضيعي الجميل وهو يبتسم لي بحنان بالغ، لأضمه إلى صدري وأبعث فيه الطمأنينة، ثم أستيقظ كل ليلة بعد أن يراودني هذا الحلم البديع وأنا أنتظر أن يأتي يوم ولادتي سريعًا، هذا الحلم هو ما يصبرني على آلام الحمل وركلاته هذا الشقي الأغلى لدي من كل ما أملك.

نسيت أن أذكر أمرًا ليس بالجلل وهو أنني لستُ متزوجة بعد..

بل إنني لا زلت عذراء حتى الآن!

***

(٥)

أحب التاريخ جدًّا، لطالما كنت مولعًا بالآثار والبناء الحضاري العتيق الذي يسلب الألباب حتى يومنا هذا، لست من هواة التحيز للحضارة المصرية كما يفعل البعض، فأثناء دراستي منذ أعوام مديدة بكلية الآداب وبالأخص قسم الآثار، كان معظم زملائي ينتمون للحضارة الفرعونية معللين أنها أصل الحضارات على الأرض وبها ما يأسرك في كل مجال ترغب في دراسته، نعم هم محقون في ذلك، فالتاريخ الفرعوني لهو أبو الحضارات وصاحب الإبداع والتميز الذي نفتخر به نحن أحفاده، إلى هذا الوقت نسعى جاهدين لفك رموزهم وأفكارهم المخلدة على مر العصور لنكتشف أننا ومهما اخترعنا من عجائب هذا الزمان فهو لن يكون بمثابة مثقال ذرة مما قام به الفراعنة منذ آلاف السنين، بل والأخص أنهم لم يملكوا التكنولوجيا الحديثة التي توجد في أيدينا الآن، وإنما شيدوا كل هذا باستخدام الأحجار والصخور الجبلية.

تلك كانت مقدمة بسيطة أبدي فيها إعجابي بحضارة بلدي حتى لا يدعوني أولئك المتفلسفون بأني أجحد على تاريخ بلدي، ربما أيضًا عميلًا وعلى الدولة معاقبتي بتهمة الخيانة العظمى.

لكن ما أود توضيحه هنا أنه يوجد عدة حضارات قديمة أخرى تنافس الفرعونية على وجه الأرض من حيث القِدَم والفن العمراني والغموض الذي تخلفه ليصيب الأجيال القادمة بعدها بالعَجْزِ التام لفهم مثل هذه الأمور، وأمثال هذه الحضارات هي الصينية واليونانية، وما أنتمي إليه أكثر هي الحضارة اليونانية. لطالما كانت صاحبة الفن والجمال في كل خطوة مرت بها عبر الأزمان، لذلك قررت منذ دراستي الجامعية أن أهتم بالتاريخ اليوناني ودراسة جوانبه التي لا زالت إلى اليوم الحالي عائق يعجز البشر عن فهمه، فمنذ أن دلفت داخل طيات إحدى المراجع الضخمة التي تتحدث عن اليونان وأنا ملهم بما أقرأه وأراه، حتى أنني بحثت كثيرًا عن صور البنايات التي تميزت بالطراز اليوناني والتماثيل الأثرية التي لها رونق خاص بها حتى أنني وصلت للجانب الأهم في كل حضارة قديمة عاشت على هذه الأرض، ألا وهي الأساطير التي تخلفها مذكورة إما في كتيباتها التاريخية أو منقوشة على الحوائط والتماثيل الأثرية القابعة بإحدى المعابد.

تميزت الحضارة اليونانية في أساطيرها بإحياء الأرواح الوهمية، شيء يشبه أن تصنع منحوتة ضخمة غير واضحة المعالم لها أجنحة لظهر جسد بشري، أو رأس حيوان ضاري يقبع أعلى جسد طائر ثم تطلق عليها اسمًا مميزًا لا تنساه أذنك ما دمت حيًا، لتخبرك بعدها أن هذا المنحوت لهو

تجسيد لإله قديم له قدرات عجيبة مثل التحكم بالماء أو عناصر التربة.. وغيرها من هذا القبيل.

حقًّا هذه الأمور تثير دهشتي حد الجنون.

إلى أن وقع تحت يدي كتيب يتحدث عن الحضارة اليونانية في مصر وبالأخص في الإسكندرية، ظللت أطالعه لأيام متتالية منبهرًا بما تركه هذا الشعب من تراث لا نُقدر قيمته الآن، وأكثر ما قرأت عنه كان منحوتة ضخمة لتمثال على هيئة جسد بشري ذو جناحين موجود بإحدى المناطق الأثرية بالإسكندرية والتي تعج ببقايا الحضارة اليونانية العتيقة، عندما بحثت حول التمثال وجدت أنه من صنع يد تاجر أخشاب يوناني في العهد القديم كان يُدعى (روزفاك)، وقد توفت ابنته الوحيدة والمحببة لقلبه لذا قرر أن ينحت هذا التمثال المهيب ليضعه فوق قبرها.

هذه المنحوتة تقف شامخة بأجنحتها وجسدها البشري واضعة سبابتها على فمها في إشارة بأن من يحضر يلزم الصمت أو حتى الهدوء التام حتى لا تنزعج ابنته الراقدة، كان حبه الجم لراحلته الصغيرة جعل عقله لم يستوعب فكرة فقدانها لدرجة أنه اقتنع أنها فقط تأخذ قيلولة طويلة الأجل وستستيقظ منها، هي لم ترحل عن عالمنا إلى الأبد، لذا وجد أن التمثال هو الحل الأمثل حتى لا يزعج الوافدين رقدتها وثباتها المؤقت.

في الواقع أذهلتني هذه الرواية والأكثر عندما وجدت بضع صور للسياح بجانب هذا التمثال بالفعل كما وصفه الكتيب فأصبحت مهووسًا به، رغم كِبَر سني ورغم ما رأيت وقرأت من عجاب إلا أنني قضيت الأشهر

الماضية أحادث كل زملائي في العمل، زوجتي، بل حتى أحفادي الصغار حول هذه المنحوتة وكيف لهذا التاجر أن يحب ابنته بهذه الطريقة نادرة الوجود، حتى وجدت منذ أيام قليلة عندما ذهبت لعملي جوابًا مغلقًا على مكتبي، مزقت فوهته لأجد بالداخل دعوة رسمية من الهيئة بزيارة هذا المكان بالتحديد وكتابة مقال تاريخي عنه.

قرأت الدعوة وأنا أنتشي فرحًا، كنت أبتسم وكأني طفل في السابعة من عمره قد نال لعبته التي تمناها لفترة طويلة كهدية من والديه بعد طول انتظار، لم أبلغ أحدًا من زملائي رغم دهشتهم على حالتي التي تبدو سعيدة للغاية لذا قررت أن أجهز نفسي لأرحل صباح اليوم إلى الإسكندرية من الخامسة فجرًا حتى أصل باكرًا لأقضي أكبر وقت ممكن داخل هذا الحرم المقدس في وجهه نظري.

دلفت مسرعًا من محطة القطار في طريقي إلى المكان المنشود حتى وصلت إلى هناك، بدأت في التقاط بعض الصور للمنحوتات الأثرية هناك، كما أدون بعض النقاط الهامة حول السياحة لتفيدني في مقالي. مرت الساعات سريعة جدًّا لم أشعر بها وأنا أمعن النظر في كل منحوتة أقابلها مع قراءة الإشعار المذكور أسفلها للتعريف بها حتى وصلت إلى قبر ابنه التاجر، وقفت أمامه لبرهة أتأمل ذاك الباب الحديدي الضخم الذي رغم قدمه لعقود إلا أنه لا يزال يملك رونقًا يجذب الناظرين إليه، وجدت أقلية بسيطة جدًّا من الوافدين تأتي لتقرأ اللوحة التعريفية المعلقة على الباب ثم تأخذ بضع صورًا سخيفة من الخارج وتعود أدراجها.

ألا يعرفون هؤلاء الحمقى أن ما بالداخل لهو أعظم بكثير من كل ما رأوه حتى الآن في هذه البقعة الأثرية؟!

تجاهلت غبائهم الذي استفزني واقتربت من الباب أتلمس مقبضه البارد ثم دفعته للداخل لينفرج الباب بثقل كاشفًا عن تلك المنحوتة الملائكية الواقفة بشموخ في وجهي، ومن خلفها يرقد قبر الابنة الراحلة، دلفت إلى الداخل بضع خطوات لألتف حول التمثال، أتلمس نحته العجيب والمصنوع بحرفية عالية، التقطت بعض الصور الخاصة بالمقال ولكن لم أُشبِع فضولي إلا عندما أخذت صورًا لي بجانب القبر ثم التمثال وأنا أبتسم ببلاهة طفل يقف جوار البهلوانات في العيد.

جلست بعد أن جُبت كل ركن بالمكان لألتقط أنفاسي ثم أرسلت الصور التي التقطتها لمديري عبر الهاتف، ظل يراها لثوانٍ ثم وجدته يراسلني:

-ما هذه الصور؟

تعجبت من رده قليلًا ثم أجبت موضحًا:

-صور المقال الذي كُلِّفت به.

ليرد بدوره:

-أي مقال؟

لم أجد مفرًّا من محادثته تليفونيًّا لعل اختلط عليه الأمر، فور أن فتح الخط بادرني بسؤاله:

-ما هذه الأشياء؟

قابلته مجيبًا محاولًا تذكيره:

-إنها صور المقال المطلوب مني منذ أيام عندما تُرِك الخطاب على سطح مكتبي.

رد باقتضاب:

-نحن لم نرسل لك خطابات تكليف منذ فترة!

زاد الأمر من دهشتي لأردف:

-كيف هذا.. إن الخطاب موقع ومختوم من الهيئة

ليقاطعني بحنق:

-موقع ومختوم.. أنى لك بهذا الخطاب؟

-ارجع على الفور لنرى هذا الأمر.

بدأت المكالمة تفقد وضوحها حتى أصبح صوت المدير متقطعًا، لم أفهم منه شيئًا سوى العودة، لأقرر أن أغلق المكالمة وأنا في قمة قلقي، كيف لخطابٍ رسمي كهذا أن يخرج دون علم؟

ولماذا أنا بالأخص المُكَلَّف بزيارة هذا المكان الذي تمنيته كثيرًا؟!

جلست في قلة حيلة محاولًا ربط أفكاري بينما أضغط على قابس الكاميرا ليعرض الصور الملتقطة، وجدت أن كل الصور كما هي فيما عدا صور ذاك التمثال والقبر.

بالفعل هم موجودين في الصور ولكني لست بجوارهم مثلما التقطت الصور منذ قليل، ضرب الخوف قلبي وأنا لا أدرك ما يجري، ألقيت نظرة

خاطفة على الممشى الرئيسي خارج الغرفة لأجد أنه أظلم بالفعل وقد غابت الشمس.. هذا يعني أني بقيت هنا داخل الغرفة طوال ساعات النهار ولم أشعر!

عدت من جديد لإطفاء الكاميرا ثم إعادة تشغيلها عسى أن يكون عطلًا فنيًّا ما، لكن كل شيء كما هو، الصور متواجدة وأنا لست بها.

فزعت وقد بدأت أن أفقد أعصابي لأنطق بصوتٍ جهوري هز أركان الغرفة:

-كيف هذا؟!

ليقابلني صوت هامس كفحيح الأفاعي من خلفي ناطقًا:

-أخفض صوتك حتى لا توقظ الطفلة!

اقشعر بدني حتى وقف شعر رأسي من الرعب وأنا ألتف برأسي للخلف لأجد ذاك التمثال الملائكي ينظر تجاهي مباشرة بغضبٍ بالغ، بينما أحاول جاهدًا النطق بكل قوتي التي لا تخرج من حنجرتي:

-ما.. ماذا.. ماذا يحدث؟!

لم ينطق التمثال هذه المرة وإنما اكتفى بأن تحرك من وقفته ليسير نحوي رافعًا سبابته على فمه في إشارة لعدم التحدث من جديد، في حين أقف مكاني ثابتًا وقد شُلَّت قدماي ولم أعد أقوى على الحراك، والباب من خلفي ينغلق بهدوء.

***

(٦)

أحدهم نشر مقالًا على موقع التواصل الاجتماعي عن أمر غامض لم أتبينه، كان يسرد حكايته على أنه توجد أسطورة صينية تدور حول كيان غامض يُدعى (خادم المراحيض)، في البداية لم أفهم المعنى، هل هو مزحة أم أن هناك شيء غريب فعلًا يحدث لم يتبين له تفسير منطقي بعد، وعندما بدأت في مطالعة هذا المقال المكتوب كان يتحدث ناشره شارحًا أسطورته التي لا أعلم حتى من أين أتى بها، أنه منذ عقودٍ مضت كان هناك واقعة غريبة في المراحيض العامة في إحدى مدن الصين والتي لضعف ثقافتي لا أقدر على نطق اسمها المعقد هذا..

هذا لا يهمنا الآن، لنتطرق إلى صلب الموضوع، فهذا الناشر يقول إن أسطورة (خادم المراحيض) لهي قديمة جدًّا وقد انتشرت الشائعات عنها في معظم أنحاء الصين ولكن لم يثبت وجودها أو أي دليل مادي لحدوثها فعليًّا بعد، فالأمر كله يحدث بأنه عندما يدلف شخص إلى المرحاض العام يجده فارغًا تمامًا وهذا غريب في حد ذاته، حيث أن الصين تعداد سكانها

ضخم ولا يوجد مطعم أو حافلة نقل عامة يكون بها مكان شاغر، فما بالك بمرحاض عام؟

ولكن الأغرب أن الوافد عندما ينتهي من قضاء حاجته ودون أن يقر بذلك عاليًا يجد أحدًا ما بالخارج يسأله ما إذا كان يريد منديلًا لتنظيف نفسه، وبالتالي يرد الوافد بالموافقة، ثم يعيد هذا الغريب السؤال مرة أخرى على مسامع الأخير ما إذا كان يريد المنديل أرزقًا أم أحمرًا، فإذا اختاره أحمرًا هذا يعني أنه سيموت مذبوحًا منثورة دماؤه على جدران المرحاض، وإذا كان أزرق فهذا يقوده إلى أنه سيختنق حتى الموت ليزرق وجهه، ولكن النقطة الأكثر تعقيدًا أنه لا يمكن لهذا الوافد رفض المناديل لأي سبب وعليه باختيار أحدها طوعًا أو كرهًا، ثم وأيًّا كانت طريقة الموت التي يفضلها الوافد ففي جميع الحالات لن يعثر أحد على جثته أو حتى أي أثر لتعذيبه حتى الموت، ذلك يجعل الأسطورة أكثر إظلامًا عما هي عليه.

تبًّا.. هذا المقال يجذبني بشدة لإكماله حتى أنني نسيت تواجدي جالسًا الآن على مقعد في إحدى المراحيض العامة، ولكنني لست في الصين بالطبع.

رغم علمي أن هذا المقال لهو مجرد خرافة مثل باقي الخرافات المخيفة التي يحب البعض تداولها لكسب التفاعلات إلا أنه أصابني بقليل من الربكة، حتى أنني منذ قمت منذ برهة لأنظر خارج مرحاضي الخاص نظرة خاطفة على باقي المراحيض، ولكن لحسن حظي وجدت البعض يتبولون

وهم يطلقون صفيرًا من أفواههم كنوع من التسلية حتى ينتهوا، والبعض الآخر يقبع في المراحيض المجاورة لي يلبون نداء الطبيعة مثلي.

حمدًا لله أنه لا يوجد خادم للمراحيض هنا يناولك المناديل الملونة تلك، فلدي مناديلي جواري أستخدمها بعد الانتهاء.

حسنًا، لنعد سريعصا إلى حيث وقفت وأكمل مقالي الساخر هذا بينما أنتهي من عملي الأساسي والأهم الآن..

يقول ناشر المقال إن الحكومات الصينية تحققت كثيرًا حول اختفاء الوافدين على المراحيض العامة حتى لجأوا إلى استخدام كاميرات المراقبة الخارجية ليتأكدوا ما إن كان بالفعل هناك من دلف إلى المرحاض ولم يخرج ثانيًا، ولكن الكاميرات أنكرت وجود حدث كهذا من الأساس، فمن رصدته الكاميرا يدلف للداخل بعد قليل يخرج بشكل تقليدي دون أدنى شك لحدوث هذه الظاهرة، ولكن نتيجة انتشار هذه الشائعة بالصين – والتي لم يُعرَف من قام بتأليفها – فلقد بدأت البلدان المجاورة لهذه البلدة تطرح حدوث نفس الظاهرة مما جعل السياح يقلقوا من التوافد داخل أرجاء مدن الصين المختلفة، فلقد أصابتهم الريبة.

وأنهى الناشر مقالته بأن هذه الظاهرة الغامضة ظهرت فقط في الصين ولم يُذكر تداولها في أي بقعة أخرى من بقاع الأرض.

حقًّا هذا المقال أثار حفيظتي وجعلني أتوق شوقًا لأن أعرف عنه المزيد فور انتهائي من جلستي هنا، حتمًا سأخرج للبحث عبر مواقع الشبكة العنكبوتية ما إذا كانت أسطورة (خادم المراحيض) هذه هي مجرد قصة

خيالية كقصص الأطفال المرعبة أم هناك دليل مادي على وجودها يمكن الاستناد إليه.

فقط علي الآن أن أخرج من هنا فلقد انتهيت أخيرًا و....

قاطعني صوت نقر أحدهم على الباب، ربما هو غريب آخر يحتاج لمرحاضي:

-مهلًا، سأخرج بعد دقائق

لكنه يعيد النقر من جديد وكأنه لم يسمعني مما جعلني أفقد أعصابي منزعجًا:

-إذا لم تملك الصبر فهناك مراحيض أخرى جواري!

صمت هذه المرة، ربما وجد حديثي لا يقبل النقاش، ولكن ما هذا السكون المطبق؟!

منذ أن دلفت إلى المرحاض وهناك ضجة عارمة، أين حركات الأقدام، أصوات صنابير المياه، أين صفير المتبولين؟!

مِلتُ لأسفل محاولًا رؤية أقدام الجالسين على مقاعدهم جواري ولكن المراحيض فارغة تمامًا، حتى أنني ناديت بصوتٍ عالٍ قليلاً:

-أيوجد أحدًا هنا؟

لا أحد يرد سوى.. سوى من يقف بالخارج ليعيد النقر علي من جديد، حمدًا لله، هذا طمأنني، ظننت أن الجميع رحل في غفلة، لكن لماذا يحاول هذا الغبي أن يفتح مقبض الباب علي وأنا لا زلت بالداخل؟

تصرفه هذا قادني للجنون لأصرخ بحنق:

-ماذا أنت بفاعل يا هذا.. هل جننت؟

ولكن ما صعقني أن الباب انفرج ليكشف عن فراغ المرحاض تمامًا سوى من كفتين ممتدتين لا أرى صاحبهما، يحملا منديلين أحمرًا وأزرقًا..

لكن هذه المرة دون أن يسأل كما ذُكِر في المقال.

***

(٧)

يُقال إن "رُب صُدفة خيرًا من ألف ميعاد".

حقًّا هذه المقولة لهي أجمل وأصدق ما قرأت يومًا، ربما زاد إيماني بها عن ذي قبل عندما حدثت بالفعل معي، وكانت أجمل صدفة قد مرت بطريق حياتي.

بالأمس كنت أجلس بغرفتي وقد أنهيت فروضي المنزلية التي لا تكاد أن تنتهي حتى أجد نفسي مع آخر فرض أؤديه أني على وشك النوم في مكاني من كثرة الجهد والتفكير الذي استنفذ طاقتي، تمامًا حالي كحال طلاب المرحلة الثانوية التي تأبى أن تكون بسيطة على قلوبنا وريعان شبابنا أبدًا، فور أن أنهيت واجباتي ذهبت إلى المطبخ لإحضار بعض الشطائر الخفيفة مع كوب من الشاي حتى أشبع جوعي الذي جعل أمعائي تئن من الإهمال طوال ساعات اليوم، ثم دلفت إلى غرفتي لأشغل التلفاز وأبحث عن فيلمًا يقضي معي هذه الساعة قبل أن أغط في نومي، فتلك الساعة هي المحببة لقلبي وأنتظر أن أحظى بها كل ليلة قبل أن ينتهي يومي ليبدأ آخر بحاجياته.

وجدت فيلمًا قديمًا منذ الثمانينيات وكنت أحبه جدًّا، أذكر صديقة مقربة لي شاهدناه سويًّا للمرة الأولى لنا، ومنذ هذه المرة وهو الفيلم الأقرب لقلبي، جلست أتابع أحداثه في نهم رغم تكراره عشرات المرات إلا أنني أشاهده في كل مرة وكأنها المرة الأولى لي، حتى وصلت إلى مشهد فيه صديقتين يخططا سويًّا لأن يصنعا فخًّا للمُعَلِم لأخرج عن صمتي ضاحكة بشدة حتى كادت أن تدمع عيناي، ولكن بعدها ببرهة جال بخاطري صديقتي تلك التي أفتقدها جدًّا، فلم نعد نتواعد كما كُنا سابقًا، لقد غابت عني لأعوامٍ حتى أنني أشعر بأنها لم تعد تذكرني البتة.

شعرت كثيرًا بغصة في قلبي على فقدانها، لكن يبدو أن القدر كان لديه رأي آخر، حيث أن جرس المنزل دق لينتشلني من تركيزي وخيالاتي الحزينة فأقوم من فوري لأفتح الباب ثم..

ثم أجدها!

لم أصدق ما تراه عيني الآن، إنها هي تقف أمام عتبة الباب وتبتسم لي بوجهها الملائكي دون النطق ببنت شفهة، لم أقم بأي شيء سوى النظر لها ببلاهة وعيناي شاخصتان في تفاصيلها لتنساب قطرات دمعي الحارة على وجنتاي، ثم أهم لالتقطها داخل أحضاني بقوة.

ظللت على هذا الحال أحتضنها، بل إنني أعتصرها داخل صدري كأني أحاول أن أشبع شوقي منها لدقائق طويلة لم أحصها، على الصعيد الآخر كانت هي تضمني لها بشوقٍ بالغ، أشعر بدموعها الحارة تنهمر على كتفي،

هذه هي الصدفة التي تساوي عمرًا بأكمله، وليست مجرد ذكرى يحفظها قلبي.

دلفنا إلى الداخل لنجلس بغرفتي أرضًا كما اعتدنا، ظلت واقفة بدورها تنظر يمينًا ويسارًا في حنين يقطر من مقلتيها كأنها تتذكر الأيام الخوالي التي عيشناها داخل جدران هذه الغرفة، ثم نظرت إلى شاشة التلفاز لتبتسم رغمًا عنها عندما أبصرت الفيلم المفضل لكلتينا، عادت بنظرتها تجاهي كأنها تخبرني أنني لا زلت أشاهد هذا الفيلم؟

لم تنطق وكأنني قرأت ما تود قوله لأطأطئ برأسي أن نعم في حنان.

جلسنا لأحكي لها عن شوقي ووحشتي دونها، ظللت أسرد كل ما جرى بينما هي كانت غائبة عني ولا زالت تستمع بتركيز دون التفوه، فقط تنصت لي بشغف ويعلو ثغرها ابتسامتها التي لطالما أحببت نقائها، صمتنا قليلًا لنتابع التلفاز سويًّا، نشاهد ما تبقى من فيلمنا ثم نبحث عن آخر، مرت ساعات الليل سريعة كأنها لحظات عابرة وأنا لا أنفك أصمت قليلًا لنحتسي بعض الشاي ثم أكمل ثرثرتي التي لا تنتهي أبدًا معها.

كم أعشق صديقتي هذه، فهي كانت ولا تزال الأقرب لقلبي.

لم ينغص علي ليلتي بالأمس سوى شيء واحد قد طرأ على بالي دون سابق إنذار، ألا وهو أن صديقتي هذه قد توفت في حادث غامض منذ أعوام، وقد ذهبت بنفسي لأشيع مراسم جنازتها!

تبًّا لهذه الخاطرة التي أرقت سهرتي مع صديقتي المفضلة.

***

(٨)

أعيش بمفردي مُنذ أعوام، عندما كنت في الجامعة كنت أقطن بإحدى البنايات التي يستأجرها الطلاب المغتربين عن أهلهم، وكنت واحدًا منهم، حيث أن جامعتي كانت بالمدينة وكان مسقط رأسي بإحدى القرى النائية التي تُعَد آخر بقاع المدينة قبل أن تدخل المدينة المجاورة، لذا كان من الصعب على أن أستيقظ كل صباح وألا حل للجامعة ثم أعود في آخر اليوم، ومن هنا قررت أن ألجأ لإيجار إحدى الغرف ببنايات الطلاب كمسكن مؤقت لي لحين انتهاء العام الدراسي والعودة إلى قريتي.

كان الأمر في بدايته صعبًا قليلًا، فلقد اعتدت على أن هناك من يحضر لي الطعام ويغسل ملابسي، حتى أنني في قريتي لم أعبأ بفكرة نظافة المنزل، كان إخوتي الصغار يقومون بهذا الدور بدلًا مني، لكن حياتي في الغرفة أجبرتني على أن أقوم بكل هذا وحدي، ليس بنفس حرفية والدتي وأخواتي بالطبع ولكن على الأقل فيما يناسب النظافة العامة وبيئة تناسب طالبًا قرر العيش وحيدًا.

مرت أعوام الدراسة في تباطؤ حتى انتهيت وكنت أظن أنني وبمجرد أن أنال شهادتي الجامعية سأعود إلى أحضان عائلتي وأعيش بقريتي في سلام، لم أدرك أن القرية ليست ملاذًا لأصحاب الشهادات المعلقة على الحائط، وأنه لا يوجد مصدر رزق يناسب حصيلة سنوات دراستي التي عانيت لإنهائها، لم يكن لدي سوى أن أتخذ مسكنًا في المدينة بعد أن بحثت عن دوام يمُن علي بمبلغ مناسب لمن في عمري، بالطبع هذه المرة لم أكتفِ بغرفة داخل إحدى البنايات، فطمعت في استئجار شقة كاملة واسعة لأحظى فيها بالراحة ما بين الذهاب لدوامي والعودة للاسترخاء فيها، وهكذا الحال منذ أعوام طويلة حتى أنني نسيت القرية ولم أعد أُبالي بزيارتها كالسابق، فقط أكتفي بإرسال بعض النقود لعائلتي وأهاتفهم كل حين وهم في غبطة لنجاحي في عملي وثناء على ما أرسله لهم، لكن تظل الطباع السيئة في كما هي لم يغيرها الزمان ولا الظروف.

لازلت مهملًا بل زاد الأمر سوءً حتى أصبحت لا أقدر على تذكر ما إذا كنت أحضرت ما ينقصني من طعام لأخزنه بالشقة أم لا، لم أعد أرتب شقتي ولو لمرة واحدة، ظننت هكذا لفترة طويلة حتى لفت انتباهي أن شقتي لم تتحول لهذه الكومة من الفوضى منذ أن استأجرتها ولكنها أمست على هذا الحال منذ عام تقريبًا، قبل العام الماضي كنت مهملًا ولكن أوقن أني أحضرت بقالتي، غسلت ملابسي، رتبت غرفة معيشتي، فحين أعود من دوامي أجد أن ما قمت به وأحضرته من أطعمة كما هو، العام الماضي فقط كلما عدت مساءً إلى شقتي أجدها مبعثرة الأركان، ملاءات الفراش كأن

أحدهم قد استلقى عليها ولم يرتبها فور نهوضه، حتى الأطعمة التي أخزنها بالثلاجة لا أجدها.

كم أنا مهمل وذاكرتي ضعيفة!

هكذا جال بخاطري للفترة الأولى من غياب الأشياء من الشقة ولم أعطِ بالًا في البداية، حتى وجدت الأمر بات مزعجًا يكاد يعصف بعقلي، فلجأت لأن أسجل كل شيء أقوم به قبل ذهابي للدوام مثل ترتيب الغرفة وإحضار الطعام ثم أرحل، وحين أعود أراجع ما دونته بخط يدي في الورقة فلا أجده، إلى هنا ولم أقدر على ادعاء التجاهل.

خطر ببالي أن أحد الجيران قد حصل على نسخة من مفاتيحي وقرر أن يسرقني أو على أبسط التقدير قرر أن يعبث معي، خصوصًا أن جميع قاطني البناية يعلمون أني أعيش وحيدًا ولا يأتي أحد لزيارتي منذ أن استأجرت الشقة من أعوام، وترتيبًا لهذا الأمر قررت أن أضع كاميرات مراقبة بكل أركان الشقة في أماكن خفية حتى لا يراها هذا الجار العابث، وأوصلتها بهاتفي ليتسنى لي رؤية ما يحدث، حتى عندما يدلف هذا الأحمق أنقض عليه متلبسًا، وبالفعل شرعت في هذا وتأكدت من عمل الكاميرات، بقيت طوال النهار وأنا في عملي أطالع الكاميرات وما تعرضه كلما سنحت لي الفرصة، كل شيء كما هو ولا أثر لهذا الدخيل بعد، حتى وجدت ذات مرة ما جعلني أشخص ببصري دون أن أتفوه بحرفٍ واحد.

وجدت باب خزانة ملابسي ينفرج بهدوء ليخرج منه طفلًا لا أستطيع تبين ملامحه ولكنه قصير القامة في حوالي السادسة من عمره، يلتف بخلسة في

أرجاء الشقة ليتأكد من رحيلي ثم يذهب إلى المطبخ ويفتح الثلاجة، يأكل الطعام بشراهة كأنه لم يتناول طعامًا منذ أسابيع، ثم يذهب لتشغيل التلفاز والمكوث أمامه لبضع ساعات حتى يغلبه النعاس ويلقي بجسده على فراشي.

بقيت أراقبه حتى وصلت إلى باب الشقة، وعندما أولجت المفتاح في الباب رأيته يسمع الصوت لينهض مفزوعًا ويهرول داخل الخزانة، دلفت إلى الداخل لأجد بقايا الصحون الفارغة وملاءة الفراش المبعثرة، قلبي اطمأن عندما أدركت أن كل هذا بفعل فاعل وليست مجرد خيالات كادت أن تصيبني بالجنون، ذهبت من فوري بهدوء تجاه خزانة ملابسي لأفتحها على مصراعيها وأعلن كشفي لهذا الصبي المشاغب، لكن لم يوجد أحد بها.

وقفت ما يقرب من ربع ساعة وأنا أنظر داخلها ما بين الملابس المعلقة ولا يكاد عقلي يصدق ما جرى للتو، حتى أنني أعدت تشغيل تسجيلات الكاميرا على شاشة الهاتف ووجدته، لكنه ليس هنا الآن!

بالطبع لم أقدر على المكوث بالشقة وقررت إقامة الليلة بإحدى الفنادق حتى يهدأ عقلي وأجد حلًا لهذا العبث، ولم ينتهي الأمر بقضاء ليلة خارجية بل استمر لأسبوع كاملًا وأنا أذهب إلى دوامي وأعود إلى الغرفة بالفندق أتابع ما يجري في الشقة، كل يوم كسابقه، يخرج الصبي من الخزانة ويمرح بأرجاء الشقة ثم يعود أخيرًا إلى خزانته في الموعد الذي اعتدت الرجوع فيه.

لم أجد سبيلًا لهذا سوى إبلاغ الشرطة بما يجري، وبالفعل حررت محضرًا بالواقعة وسردت كل تفاصيلها التي جعلت الضابط يشك بسلامة قواي العقلية ويسألني عن طبيعة عملي وما إذا كنت أتناول بعض الأدوية المهدئة أو التي تترك أثرًا جانبيًّا، تجاهلت كل هذا لحين أتى دوره في مطالعة تسجيلات الكاميرا، تركت الهاتف له وهو يشغل المقطع تلو الآخر ثم يعود بنظراته المتشككة تجاهي، حتى رد:

-ليس هناك صبيان بالتسجيلات!

نظرت له فاغرًا فاهي لألتقط منه الهاتف بريبة وأعيد تشغيل التسجيلات مرارًا، ولكنه على حق!

لم أجد مفرًّا من تدبير موقفي بعدما وجد أنني أكاد أكون مختلًّا في تقديره، حتى أنني توسلت إليه فقط من باب أن هناك احتمالًا واحدًا لصدق حديثي أن يحضر لجنة تفتيش لزيارة شقتي، وبعد عدة محاولات باءت بالفشل قرر الضابط على امتعاض التخلص من توسلاتي الخانقة ويحرك قوة معي وهو على رأسها، ضبطت موعد ذهابي للشقة وهو الوقت الذي يعود فيه الصبي إلى خزانته، وقفنا جميعًا أمام باب الشقة وأنا أطالع شاشة الهاتف والصبي أمامي نائمًا على الفراش، بينما ينظر لي الضابط بسخافة الوقوف جوار مريض ذهان، حتى تحرك الصبي إلى خزانته لأفتح من فوري الباب وتدخل لجنة التفتيش لتبحث في كل ركن من أركان الشقة وأهمهم خزانة الملابس، ظلوا على هذا الأمر حوالي ساعة كاملة لم يتركوا فيها شبرًا واحدًا لم يفتشوه، ثم أسفر البحث عن لا شيء، لينظر لي الضابط بنصر

محاولًا كبح ابتسامته الساخرة، لأشكره بدوري على مجهوداته وبالطبع أنصت لنصائحه حول زيارة طبيب نفسي ثم رحل مع قوته في انتصار أشبع غروره.

هذه الليلة قررت ألا أفارق شقتي وأنام فيها حتى موعد دوامي في اليوم التالي، وعندما استيقظت قررت نزع هذه الكاميرات التي أصابتني بالجنون مما تعرضه، محاولًا إقناع نفسي بأن كل هذا لم يحدث قط.

ذهبت إلى عملي بعدها وعادت الأمور لنصابها، كل شيء هادئ فيما عدا أني لا زلت أرجع وأجد الطعام مأكول والأركان مبعثرة، لكن بلا أي صبية ينغصون علي حياتي، حتى في مرة من المرات أتيت مبكرًا قليلًا عن موعدي المعتاد وبمجرد أن فتحت باب الشقة وجدت أحد مقاعد الطاولة ينزلق أرضًا كأن أحدهم قد قفز من فوقه، وقطعة من الخبز المحشو موضوعة على صحن أعلى الطاولة، لأهرول سريعًا تجاه غرفة نومي فألمح ساقين صغيرتين دلفا داخل الخزانة وانغلقت بقوة.

منذ ذلك الحين وعلمت أنني على الاعتذار على القدوم إلى شقتي بدون موعد سابق، وها أنا وبعد عام كامل لا زلت أعيش بذات الشقة مع أحدهم..

لكن لا يقابل بعضنا الآخر.

***

(٩)

أعمل ساعيًا للبريد بإحدى المناطق المزدحمة بالمدينة، وهو أمر يجعلني أندب حظي يوميًّا كلما سنحت لي الفرصة..

تخيل أن تكون ساعيًا للبريد في مدينة تعج بالمصالح الحكومية ومقرات الأحزاب وكبار رجال الدولة، كما أن معظم قاطني هذه المنطقة لديهم أقرباء يعيشون خارج حدود البلاد، فيهم من لديه ابن يكتسب قوته بإحدى الدول، وآخر من يراسله أخيه الذي تربى وعاش خارج البلاد، وغيرهم.

منطقة كهذه كان جميع زملائي بالعمل يرفضونها رفضًا قاطعًا عندما يُذكر أسمائهم على أنهم المسئولين عن توصيل خطابات البريد فيها، بعضهم لم يقدر على مجابهة بضع أيام فيها حتى أنه اعتزل العمل وذهب ليبحث عن مصدر رزق آخر، بطبيعة حالي لم أكن أبالي بمثل هذه الأمور في البداية، كان لدي اعتقاد أن زملائي بالعمل لهم قوم أعمتهم رفاهية الحياة حتى لم يتكبدوا عناء إيصال خطاب بريدي لأحدهم، لذا قبلت أن أعمل ساعيًا

لهذه المنطقة وأُلقِّن هؤلاء المرفهين درسًا أن العمل الذي يخالونه صعب لهو أتفه الأمور إذا فقط حاولنا..

ويا ليتني لم أفعل.

قبعت مسئولًا عن هذه المنطقة قرابة الستة أشهر كاملة أقضيها يوميًّا من السابعة صباحًا وحتى الخامسة مساءً وأنا أركب دراجتي التي حملتني لأعوام، لأذهب إلى كل عنوان بعينه وأوصل الخطاب لأصحابه، ناهيك عن بعض الخطابات التي يحتاج الوصول لعنوانها معاونة من القمر الصناعي ذاته، فهؤلاء الناس يعيشون في آخر بقاع الأرض إن كنتم تدركون ما أرمي إليه، لأعود في نهاية اليوم مترنحًا من التعب وأنال قسطًا من الراحة حتى ألقى يومًا جديد.

مرت الأشهر متتالية لا يوجد بها ما يعكر صفوي سوى بعض الخطابات التي لم يستدل على أصحابها، تلك التي تفتقد إلى عنوان صريح، اسم المرسل إليه، أو حتى اسم الراسل نفسه، أتعجب من هؤلاء الذي يرسلون أموالًا أو خطابًا هامًّا وينسوا أن يدونوا عليه وجهته وبعض المعلومات الأساسية لضمان وصوله..

ومن ضمن هذه الخطابات التي تكثر وجدت واحدًا أثار فضولي.

في إحدى المرات وأنا أستلم خطابات اليوم وقائمة العناوين وجدت بين الخطابات واحدًا لا يحمل عنوانًا ولا اسم المرسل إليه، فقط مظروف أصفر داكن له ملمس خشن عن المعتاد من المظاريف التقليدية التي أقابلها، وعلى ظهره مكتوب (إليك)!

لم أفهم ماذا تعني هذه الكلمة، لذا بحثت في قائمة العناوين فلم أجد سوى عدد العناوين المرتبطة بعدد الخطابات، أما عن هذا المظروف الغريب فليس مقيدًا بالمرة، مما جعلني أنهي توزيع الباقين وأعود إلى مكتب البريد لأستعين بمديري في هذا الأمر.

أمسك الأخير بالخطاب لدقائق يتفحصه دون فتحه، فنحن لا نملك أي سبب قانوني لإفراغ محتوياته، مثل هذه الخطابات المجهولة إلذا لم يُستدل على عنوانها نقوم بوضعها في خزانة المحفوظات لحين البت في أمرها، فأحيانًا يأتي بعض المتسائلين حول ما إذا كان أرسل أحدهم خطابًا له فيطلع عليهم ويجد ضالته، أما باقي الخطابات فتظل قابعة بالخزانة كما هي.

ظهرت علامات التعجب على وجه المدير حتى قرر أخيراً أنه ربما وُضِع بين الخطابات عن طريق الخطأ، فتجاهلنا الأمر برمته وحفظناه مع الباقين ومر اليوم بسلام، لأتفاجأ بعد عدة أيام أخرى بذات الخطاب يقع بين يدي مع الآخرين، بدأ القلق يساورني فعدت من جديد إلى مديري وهذه المرة دقق النظر في أي علامة قد تجاهلها المرة الماضية توضح كُنيته فلم يجد سوى الطابع البريدي الذي يساعدنا على إدراك بلد الُمرسِل، ولكن الطابع البريدي غامضـًا مما أجبر المدير على النطق دون النظر إلي:

-هذا الطابع لا ينتمي لأي بلدٍ أو محافظة نعرفها

لأجيبه مستفهمـًا:

-كيف هذا.. ألا يمكن أن يكون أول مرة يُرسَل خطاب من هذه المنطقة؟

ابتسم بدوره لي ليردف ناظراً نحوي:

-عزيزي.. أنا أعمل في البريد منذ ما يقرب من الأربعين عاماً، ولم يمر علي هذا الطابع ولو لمرة واحدة

تعجبت من الأمر لأعيد سؤالي:

-إذاً.. ماذا أنا بفاعل؟

يرد الأخير منهياً النقاش:

-لا شئ.. سيوضع مع اخوته بالخزانة.

وبالفعل انتهى أمره مع الباقين، ومرت الأيام تباعاً لأجد نفس الكرة ونفس الخطاب بنفس الكلمة المدونة على ظهره..

(إليك)!

لكن هذه المرة لم أعطي بالاً ولم ألجأ إلى المدير فلن يضيف جديد لما قاله آخر مرة، وذهبت من تلقاء نفسي لأضعه في الخزانة، وعلى هذا المنوال مرات عديدة حتى وصلني عشرات من هذا الخطاب، وفي كل مرة أَضعه بجانب السابقين حتى أصبح المدير يسألني كل فترة ما إذا سأل أحدهم على هذا الخطاب، فأجيبه:

-لا يا سيدي.

معظم الخطابات يأتي من يبحث عنها ما عدا الأخير هذا، حتى قادني فضولي هذه المرة إلى أن أحتفظ بإحدى هذه الخطابات وأفرغ محتوياته في المنزل، كنت أعلم أن هذا التصرف ربما يضعني تحت طائلة القانون

وانتهاك خصوصيات العامة ولكنني قررت إما أن أصل لمبتغى هذا الخطاب أو أحرقه وألقي به في القمامة دون أن يعلم أحد.

عندما أنهيت دوامي وعدت إلى منزلي، ترنحت حتى وصلت إلى فراشي لأرقد أعلاه وأخرج الخطاب من جيب سترتي، تلمسته قليلاً وقلبته بين كفتي ثم مزقته لأفرغ ما بداخله، وكانت الصدمة..

ورقة مطوية بالداخل مُرسلة لي من أخي يقول فيها أنه كانت غائبًا لبعض الوقت نتيجة علاجه فلم يستطع مراسلتي، وهو الآن يتمم شفاؤه وسيعود إلي عما قريب.

أغلقت الخطاب بعد أن قرأته بأم عيني لعشراتِ المراتِ دون نطق حتى ظللت أنظر لسقف الغرفة دون حَرَاك ولا شيء يجول بخاطري تمامًا، كما هو المخبول حتى أشرق صباح اليوم الجديد ولم يطرف لي جَفن، لأهم من فوري متجهًا إلى المدير، فور أن وصلت دلفت إليه دون طرق الباب أو إذن بالدخول حتى هرع نتيجة عُجالتي تلك وكادت يده تسقط كوب القهوة، ليصرخ في:

-ماذا دهاك أيها الغبي؟

تحاملت على نفسي وتجاهلت غضبته فأنا المخطئ من البداية، جلست أمامه ألتقط أنفاسي واضعًا الخطاب المفتوح أمامه، وبعد برهة من تعجبه بدأت السرد:

-أعلم أنه خطأ ولن ألومك في أي إجراء تتخذه ضدي.. لكنني فتحت هذا الخطاب المكرر بالأمس وها هو أمامك

نظر لي بحدة وكاد أن يطردني خارج مكتبه ولكن نظرتي القلقة جعلته يُهدئ من روعه ويعيد التفكير سريعًا، ليتساءل:

-وماذا وجدت؟

أجبته:

-ربما من الأفضل أن تطلع عليه بنفسك

نظر لي باستغراب ثم أفرغ الخطاب ليقرأه، لحظات تمعن فيها القراءة ثم جال ببصره نحوي مردفًا:

-هذا الخطاب من أخيك؟!

أجبته باقتضاب:

-نعم.

لينطق ساخرًا وقد أطلق ضحكة عالية:

-وأخيك هذا لا يعلم أننا في مدينة تعج بالسكان، أنه حتى لم يتكبد عناء كتابة اسمه أو اسمك على المظروف، كيف توقع أن تجده؟

من كلمة (إليك) المدونة هذه؟!

أكمل ضحكاته الساخرة وأنا أتابعه بنظراتي في صمت حتى هدأ قليلًا، لأردف:

-أخي هذا توفى منذ عشرة أعوام!

صمت تمامًا وكأن سهم الله قد أُنزِل عليه، ليسأل بقلق:

-ماذا؟

أجبت مؤكدًا:

-مثلما سمعت.

نظر لي لبرهة ثم نادى على أحد مساعديه وطلب منه بأن يأتي بباقي الخطابات مثيل هذا من الخزانة، ليغيب الأخير لدقائق تاركًا إيانا في صمتنا المطبق ثم أتى بها جميعًا، بقينا نحن الإثنين بمفردنا في المكتب نمزق الأظرف ونخرج الخطابات لنجدها تحمل نفس الكلمات بنفس النمط، دون زيادة أو نقصان، وكأنها نسخ مكررة.

لم أنطق بكلمة طوال جلستنا حتى أردف المدير محاولًا إقناع نفسه:

-حتمًا هناك خطأً ما.

لتطرأ على بالي فكرة وأمسك بإحدى المظاريف مدققًا النظر في الطابع البريدي لأتهجى اسم المدينة المدونة بصعوبة، إلتقطها المدير على مسامعه وظل يفكر فيها مليًّا ولكن دون جدوى، حتى قرر أن يستشير أحد زملائه فرفع سماعة الهاتف وطلب الرقم ليقابله الأخير بالرد بعد عدة محاولات.

أردف المدير متعجلًا:

-كيف حالك يا عزيزي.. كي لا أطيل عليك.. أريد أن أعرف عن تلك المدينة، إن كان هناك ما يصلك بشأنها

ظل ينصت المدير لحديث صديقه لدقيقة كاملة ثم أنهى مكالمته وهو ينظر إلي باستنكار:

-حسنًا.. أشكرك

لا شيء.. فقط كنت أفك ألغاز الكلمات المتقاطعة.

أغلق السماعة وعم الصمت لبرهة، حتى أدليت بسؤالي:

-ماذا قال لك يا سيدي؟

أطرق رأسه لأسفل ثم نظر لي مجددًا مجيبًا:

-يقول إن هذه المدينة لم يصل منها خطابات منذ عقود، إنها الآن غير مأهولة بالسكان بالمرة!

ظللت صامتًا بعدها، لا أجد ما أتفوه به حتى قررنا حرق تلك الخطابات فلا نقع تحت طي المساءلة القانونية، وكأن شيئًا لم يكن..

ولكن منذ هذا الحادث وحتى الوقت الحالي ولا زالت تأتي نسخ هذه الخطابات حاملة نفس الطابع البريدي، نفس رسائل أخي الراحل، ليغلفها من الخارج مظروفًا مكتوبًا على ظهره (إليك).

***

(١٠)

أعيش مع زوجتي بإحدى القرى النائية البسيطة، تزوجنا منذ عامين وأقمنا بمنزلنا الخاص الصغير الذي يقع على أطراف القرية بجوار الرقعة الزراعية التي أمتلكها، والتي بدورها تغدق علي بالخيرات لتساعدني على المعيشة، فهذه الخيرات كافية ويفيض بالنسبة لي، لكنها لا تساوي شيئًا أمام حاجيات زوجتي التي لا تنتهي أبدًا، بطبيعة حالي أنتمي لعائلة متوسطة الحال لا يملكوا سوى بضع رؤوس من الماشية وقطعة أرض زراعية يتعايشوا منهم، لذا عندما قررت الزواج أخيرًا طلبت من والدتي أن تختار لي إحداهن التي تقبل بمستوانا المعيشي البسيط، فالحال في القُرى ليس كالمدينة ولي حق الاختيار كما يزعم البعض، هنا لا شيء يُدعى الحُب، لا توجد كلمة في قاموس عاداتنا تسمى بالتعارف، وإنما هنا وفور أن يشتد عودك تطلب الزواج ليسعى والديك في الاتفاق السريع مع إحدى العائلات لتجد نفسك وبين ليلة وضحاها ترقد جوار زوجتك على الفراش، لتكملا سويًّا الباقي من حياتكما التعيسة.

مرت الأيام متتالية بلا أي شيء يعكر صفوها، نأكل ونشرب ونتحاكى سويًّا في بعض الليالي دون أي قلق مما قد يحدث في الغد، حتى عادت زوجتي ذات ظهيرة من السوق التجاري الذي يقام مرة واحدة كل أسبوع، هذا السوق يقبع به تجار الملابس، الطيور، الأطعمة، حبوب الذرة وغيرها، فعندما أقبلت كانت عابسة الوجه، يعم الصمت بيننا لفترة طويلة داخل المنزل حتى لم أجد مفرًّا من سؤالها عما يؤرق تفكيرها، فأخبرتني أنها رأت ثوبًا أنيقًا مع أحد بائعي الملابس البسطاء بالسوق، وودت لو أن تبتاعه لترتديه في المناسبات العائلية والريفية التي تقام بين الجيران وبعضهم، وعندما سألتها عن ثمنه كان رخيصًا جدًّا على عكس ما توقعت، فكما ذكرت سابقًا أن متطلبات زوجتي لا تنتهي أبدًا ودائمًا ما تكون فوق طاقتي، لكن هذه المرة وعندما وجدت ما تريده بخسًا لم أشأ أن أحزنها، لذا قررت أن أمنحها القروش سريعًا لتهرول مبتسمة كالأطفال خارج المنزل محاولة أن تتفادى فقدان ذاك البائع في وسط الزحام.

مرت ساعة تقريبًا حتى عادت زوجتي حاملة ثوبها لألقي ببصري عليه فأجده جديدًا مزركشًا، لا يُباع أبدًا بمثل هذا الثمن البخس، حتى أنني شعرت أنها لا تخبرني بالحقيقة في بادئ الأمر وأنها ربما استدانت بضع قروش من أحد الجيران لتكمل على سعره، لكنها أقسمت أن هذا لم يحصل وأنها ابتاعته بالثمن البسيط ذاك، ربما هذه هي المرة الأولى التي ابتسم فيها بنصر عندما وجدت زوجتي تربح في صفقة كهذه لأربت على كتفها وأحدثها بأني أرغب برؤيته عليها، لتغيب لدقائق قليلة ثم تخرج من الغرفة وهي ترتديه وكأنه صُنِع خصيصًا من أجلها، فعادة ما تكون الملابس

واسعة قليلًا أو قصيرة بعض الشيء، لكن هذه المرة كأنه تم تفصيله بما يلائمها تمامًا مما جعلني أنظر لها بشبق بعد أن زادت جمالًا بعيناي.

عُدنا إلى شئون يومنا سريعًا بعد أن وضعت زوجتي ثوبها بالخزانة لحين يأتي وقت ارتداؤه، ومر اليوم كالمعتاد حتى دلفنا إلى النوم..

أثناء نومي وجدت بعض النقرات البسيطة تأتي من داخل الخزانة، تقلبت في فرشتي دون أن أعطي بالًا ولكن النقر تكرر لعدة مرات، أخرجتني النقرات الهادئة من نومتي لأعتدل في الفراش وأشخص ببصري تجاه باب الخزانة الذي وجدته مفتوحًا على مصراعيه دون أي مبرر لذلك، ظللت أرمقه ببصري ولا أفهم كيف انفرج بهذه الطريقة، لأسحب نظراتي من على باب الخزانة موجهًا إياها إلى باب الغرفة لأجد تلك السيدة الغامضة تقف بشموخ ناظرة نحوي، الظلام يغطي كل شيء حتى أنني لا أستطيع أن أتبين ملامحها أو حتى ما ترتديه هذه الغامضة، فقط كيانها الأسود الشامخ واقفًا بثبات، لم أراها تنظر إلي ولكن هناك شعور مقبض داخلي ينبئني بذلك.

مرت الدقائق التالية ثقيلة وأنا أقطر عرقًا من جبيني وألهث أنفاسي المكتومة من هول ما أراه أمام نُصب عيني، حتى تحركت تلك السيدة من وقفتها لتدلف خارج الغرفة، لا أعلم لماذا قمت بهذا الأمر السخيف ولكن قادتني خُطاي لأن أخرج خلفها، تحركت وقدماي ترتجفان وقلبي ينبئني بأن هناك ما هو مظلم هذه الليلة، لأفتح باب غرفتي فأجد باب المنزل منفرجًا على مصراعيه هو الآخر، حتى أنني لم أسمع متى تم فتحه وهو

الذي يصدر أزيزًا عاليًا لثقل حجمه حينما نفتحه أو نغلقه، تحركت ببطء إلى خارج عتبات المنزل ناظرًا حولي، محاولًا تركيز رؤيتي في هذا الظلام الذي يحاول ضوء القمر الباهت أن ينيره، ذات الهاجس أخبرني بأن أقترب قليلًا من حافة الرقعة الزراعية لأتحرك بضع خطوات فأجد تلك السيدة السوداء تقف بشموخ وسط السنابل وتحدق بذات ثباتها تجاهي مما جعل الرعب يدب بقلبي، ثم أغمضت عيناي لا إراديًّا لأستيقظ مفزوعًا على صوت زوجتي في صباح اليوم التالي، مما جعلها تنتفض من جانبي وأنا أجحظ بعيناي تجاه الخزانة المغلقة، لم أعرف ما أخبرها به ولكني اكتفيت بأن همست باقتضاب أنه كان كابوسًا ثقيلًا، لتهم من جواري متجهة إلى الخارج لتقضي أعمال المنزل اليومية وأنا أظل ثابتًا في رقدتي أحدق في الخزانة.

مر نهار اليوم سريعًا وأنا أحاول أن أنفض عن عقلي ما رأيته بالأمس، أحاول إقناع نفسي أنه كابوسًا لا أكثر، حتى عدت مجددًا إلى فراشي في المساء ولكنني لم أنم قط، ظللت أنظر في ظلام الغرفة تجاه الخزانة منتظرًا حدوث أي شيء غريب، لم يجري أي شيء حتى بدأت بالتململ والابتسام على بلاهتي لأتثاءب معدلًا وضعية رقدتي، ثم..

بدأت النقرات من جديد تصل بخفوت إلى أذناي لتنتشلني من نعاسي فأجحظ ببصري تجاه الخزانة، مرت ثوانٍ ثقيلة على روحي حتى بدأ الباب ينفرج بهدوء لتخرج منه كفتين جاذبة خلفهما جسد مظلم تمامًا، إنها ذات السيدة الغريبة تتحرك بخطوات بطيئة كأنها تزحف لتسير خارج الخزانة تجاه باب الغرفة، أتابعها بنظراتي وأنا أرتجف مكاني متوقعًا حدوث ما

جرى بالأمس وستخرج إلى الرقعة الزراعية مجددًا، لكنها توقفت فجأة وعدلت ومن وجهتها لتقترب من حافة الفراش تجاهي، أرمقها ولا أدري ماذا علي أن أفعل في مثل هذا الأمر، حتى وصلت بالقرب من صدري لتميل قرابة وجهي، لا يوجد بها ملامح، إنها كيان مظلم تمامًا يتنفس بحرارة في وجهي، ألقيت ببصري على زيها لأجده ذات الثوب الذي ابتاعته زوجتي البارحة، لم أقبل على أي حركة سوى أن أغمضت عيناي وأنا أرتجف حتى كاد قلبي أن يقفز من ضلوعي، لأفتح عيناي بعد دقائق مرت كالدهر في ثقلها فلا أجدها على مرمى بصري!

بقيت صامتًا لا أنطق ببنت شفهه وأنا أتطلع في أرجاء الغرفة المظلمة حتى تشقق ظلام الليل وأقبل الشروق، استيقظت زوجتي لتجدني قابعًا على حافة الفراش صانعًا سحابة فوق رأسي من السجائر التي ظللت أنهي أعمارها طوال ساعات الليل، تعجبت من شرودي هذا ولأني مستيقظًا باكرًا وهي التي اعتادت أن توقظني كل يوم منذ أن تزوجنا، لم أعرها انتباهًا على أسئلتها المتكررة حول ماذا يدور بخلدي ولكنني اكتفيت بأن أخبرتها أن هناك كابوسًا مكررًا يؤرق نومتي كل ليلة.

لم تعقب بشيء مفيد وهذا ما توقعته منها بالضبط، لتخرج إلى دوامة أشغالها اليومية تاركة إياي غارقًا في أفكاري وما رأيته على مدار ليلتين ثِقال على قلبي، ظللت أُعيد ما جرى بكل تفاصيله في عقلي ليجري أمام ناظري بطيئًا، لم ألتفت لأي شيء مميز يفيدني، فالظلام كان كالحًا في الغرفة في الأمس كما عادته، باب الخزانة يصدر صوت نقرات خافتة من الداخل، السيدة العجوز ذات الملامح الباهتة، الثوب ال..

نعم.. إنه الثوب!

هذا هو الشيء الوحيد الذي أثار دهشتي، فما علاقة ثوب زوجتي بتلك السيدة، كما أنه كان واضحًا وهي ترتديه عندما دلفت بالقرب مني، هذا ليس من قبيل الصدفة، حتمًا هناك شيئًا ما أجهله يتعلق بذاك الثوب، ألقيت فورًا بسيجارتي من يدي وتحركت إلى باب الخزانة فاتحًا إياه على مصراعيه، أعبث بين الملابس عن هذا الثوب اللعين، فلا أجده!

زاد الأمر من حنقي لأصرخ بصوت عالٍ هز أركان المنزل على زوجتي التي جاءت تهرول مذعورة، سألتها عما إذا كانت وضعت الثوب بمكانٍ آخر، لكنها سألتني عن أي ثوب أتحدث؟!

شعرت وكأنها تحاول إغاظتي أكثر لأصرخ في وجهها موضحًا أنه ذاك الثوب الذي ابتاعته منذ يومين من أحد الباعة في السوق، لتنظر لي وعلامات البلاهة بادية على قسمات وجهها، تتعجب مما قلته وبكل صدق تنطق أنها لم تذهب للسوق منذ أسبوعين مضوا...!

***

(١١)

منذ نعومة أظافري وأنا أجدها جواري، دائمًا ما كنت أراها تجلس على إحدى المقاعد الموجودة بغرفتي وتقربها من حافة فراشي، كانت تقص علي الكثير من القصص التي أعشقها، أكاد أجزم أن تلك القصص لازالت أحفظها عن ظهر قلب، كانت تنتظر أن أستيقظ مبكرًا من نومي في أيام عطلتي الدراسية لكي تأخذني لنغتسل ثم تطعمني وجبة إفطاري المفضلة، لطالما أحببت أن أرقد بإحدى مقاعد طاولة المطبخ لأراها وهي تعد لي ما لذ وطاب من فطور، ثم ترفعني على كتفيها رغم ثِقَل وزني لنذهب إلى حديقة المنزل، أتناول فطوري في عجالة كما هو حالي حتى الآن ثم أنصرف للهو في كل ركن من أركان الحديقة، أظل يومي بأكمله لا أرتاح ولو لبرهة، كان لدي هاجس طفولي أنني إذا استرحت كثيرًا فسيضيع وقت اللعب مني حتى أنني ربما أُحرَم منه، وبطبيعة قلبها الحنون كانت تلعب معي، تمزح، تهرول ورائي حتى تمسكني بلطف وتأخذني لأتناول وجبة الغذاء، يسير اليوم هكذا حتى ينتهي لتأخذني إلى حمامي الساخن الذي تعده لي فأنتعش، كانت تقف على باب المرحاض وأنا أستحم تنتظر مني

أن انتهي وهي تحمل لي المنشفة لأخرج مدثرًا بها كي لا ينال البرد القارس من عظامي، هي التي اهتمت بأن تستذكر لي دروسي، فلم يكن أبواي يملكا وقتًا كافيًا لمثل هذه الأمور، كنت أدلف إلى غرفتي لأجدها جالسة على مقعدها المعتاد وتبتسم لي بحنان ثم نجلس أرضًا لتستذكر لي، كانت ذكية بحق رغم أنها لم تتعلم، لم تدلف إلى أي مدرسة طوال حياتها، وهذا ما أدركته فيما بعد عندما سألت والدتي.

لازالت أذكر ضحكاتي العالية معها في غرفتي، كنت أكتفي بها عن العالم أجمع، حتى أصدقائي عندما كنت أحدثهم عنها يتعجبوا من حديثي ويكادوا أن يقطعوا تعاملهم معي، معهم حق، فليس كلًّا منا لديه من يهتم لأمره بهذه الطريقة.

لطالما كنت أنتظر قدوم سكون الليل حتى أدثر بالغطاء داخل فراشي لتطفئ لي إضاءة الغرفة وأحكي معها عن كل ما جرى أثناء يومي الدراسي، وهي تنصت باهتمام بالغ وابتسامتها الحنون لا تفارق وجهها أبدًا، حتى أنه في بعض المرات دلف أبي إلى غرفتي وأنا أحكي معها ثم اضطرب وجهه وابتسم سريعًا وأغلق الباب من خلفه، كانت والدتي تستنكر رغبتي في البقاء وحيدًا بالغرفة لساعاتٍ طوال أو حتى لا أهتم بتكوين صداقات جديدة.

وكيف لي أن أكون بمفردي وهذه العجوز الرحيمة تؤنس وحدتي؟

قضيت مع مربيتي هذه أعوام طفولتي كلها بكل ما يؤرقها وكل ما يجملها، حتى عندما وصلت إلى مرحلة المراهقة كانت هي على علم وإدراك كامل بتلك التغيرات الجسدية التي تجري لي، فكانت دائمًا ما تحترم

خصوصياتي، تدرك أنني وفي هذه المرحلة لدي اضطراب نفسي ما بين غبطة عارمة وغضب بالغ، كان أبواي يحاولا التقرب مني بشتى الطرق، يمنحوني الكثير من المال، الهدايا في كل مناسبة، شعرت أنهما يحاولا تخفيف شعورهما بالذنب حيال تركي وحيدًا وأنا صغيرًا لمربيتي تعولني بمفردها، رغم كل هذا فأنا أشفق عليهما، فأنا عندما كنت صغيرًا كنت مشاغبًا جدًّا، كنت آية في العبث والعمل الشيطاني، لكن مربيتي كانت تغضب جدًّا حين يتقرب مني أبواي، تشخص ببصرها تجاههما وتظل صامتة، معها حق فهي من ربتني وليس هما البتة، هذه هي أمي فأنا لم أعتبرها يوما مربيتي، بل هي الحضن الدافئ في كل فترات حياتي.

أذكر لها عندما كانت تجدني حزينًا أو أحدًا ما كسر قلبي حتى وإن لم يقصد أجدها تنصت لي باهتمام وقسمات وجهها غاضبة حتى يكاد يتطاير الشرر من عينيها، لتهمس لي أنها ستذيقه أشد العقاب، ففي إحدى المرات كان صديقًا لي في الطفولة يبغضني فقرر أن يتشاجر معي ليمزق لي ثيابي الجديدة، ذاك اليوم عدت متأخرًا إلى المنزل وعلى وجهي بعض الخدوش وملبسي ممزق، لتقابلني في حضنها وتسألني عما جرى، فتخور قواي وأسرد لها، حينها تركتني تلك الليلة حتى صباح اليوم التالي، ظللت أنتظرها في غرفتي طوال الليل حتى أشرق صباح يوم جديد لأجدها تطرق باب غرفتي، لتدلف وعلى وجهها ابتسامة نصر، حينها ذهبت إلى المدرسة ولم أقابل صديقي هذا، ظل غائبًا لفترة طويلة حتى أنهم أعلنوا أنه في عداد المفقودين!

كانت قاسية بحق على كل من يحاول زرع الحزن بقلبي، أذكر أنه في مرة صفعتني والدتي على وجهي لأنني قمت بمغازلة إحدى فتيات المدرسة، فذهبت إلى غرفتي ونفسي منهزمة حيث أن والدتي لم تضربني قط طوال حياتي، وظللت أبكي رغم كِبَر سني على وسادتي حتى ذهبت في ثباتٍ عميق، لأجد في اليوم التالي والدتي مريضة جدًّا بالحُمى ولا تقدر على مغادرة الفراش، وعلمت بعدها أن تلك الفتاة التي غازلتها صدمتها سيارة مسرعة لتصيبها بعاهة جعلتها لا تقدر على السير مجددًا.. مسكينة تلك الفتاة.

كانت مربيتي تحمل أطنانًا من الكره نحو أي أحد يقترب مني، قسوتها هذه جعلتني أفكر مائة مرة قبل أن أحكي لها عن أي موقف أصابني بالضيق، فعواقبها كانت وخيمة، لكن ورغم كل هذا فهي التي ربتني وظلت جواري حتى اشتد عودي وأصبحت ناضجًا الآن، لا أنسى لها وقفتها جواري وأنا بحفلة زواجي، كانت تدمع كثيرًا وقسمات وجهها تحمل غضبًا عاتيًا، فلقد تَمَلَك العَجز منها وكسا الشيب رأسها، انحنى ظهرها وأمست لا تقوى على الحركة كثيرًا مثلما كانت وأنا صغير، إنها أمي وليست أبدًا مربيتي الفاضلة.

ولكن ما أرق تفكيري أنه منذ فترة كنت أجلس مع أبواي نتهادى معًا ذكريات طفولتيهما، أخرجنا مجلد الصور القديمة نلقي نظرة عليه، كان والدي يسرد لي تاريخ كل صورة ومناسبتها حتى يأتي الدور على والدتي لتحكي عن أيام طفولتها وذكرياتها الجميلة، لأجد مربيتي تلك واقفة بإحدى الصور جوار والدتي وهي صغيرة، تعجبت من كونها بلغت هذا

العمر فلقد ربت والدتي ثم أنا من بعدها، لأشير إليها بسبابتي فتجيبني والدتي أنها كانت مربيتها منذ عقود، ثم تكمل حديثها متذكرة أن هذه المربية كانت تحمل قسوة عارمة على أطفالها حتى أنهم طلبوا اللجوء بعيدًا عنها ونتيجة وحدتها تلك قررت العمل كمربية لوالدتي، ثم اختفت بعد فترة قصيرة دون أثر لها!

نظرت لوالدتي مشدوهًا حول ما تقول لتتعجب هي بدورها ثم توضح أن هذه المربية لم تمكث طويلًا معها في أيام طفولتها ولكنها اختفت سريعًا ولا أخبار عنها حتى يومنا هذا، حتى أنها لا تذكر اسمًا لها.

تركت أبواي في هواجة ليتعجبا من تصرفي ودلفت مسرعًا إلى غرفتي وأنا لا أفهم أيًّا مما قالته لي والدتي منذ قليل، لأفتح باب غرفتي التي تركتها منذ زواجي وأجد مربيتي كما هي عادتها، تجلس على مقعدها قرب الفراش تنتظرني، ولكن هذه المرة تحدق في بغضبٍ عارم.

***

(١٢)

هناك كثير من الأحداث الغامضة التي تجري بمنزلي، أمورًا غريبة لا أفهمها، كلما جلست بالمنزل أشعر بضيقٍ يجتاح صدري وكأن أيادٍ خفية تقبض على رقبتي مانعة إياي من التنفس، حالة من الكآبة تعصف بالمنزل حتى أصبحت لا أطيق التواجد فيه، أنتظر أن أذهب إلى مدرستي كل صباح وأتمنى كل يوم لو أن يومي الدراسي يطول حتى لا أعود مبكرًا إلى ذاك الجحيم المطبق.

من بداية خروجي من عتبات المنزل أشعر براحة نفسية كبيرة طوال الوقت، أعيش أفضل أوقاتي ما بين دراسة ولهو مع زميلاتي بالمدرسة، وعندما أخرج للتنزه كل نهاية عطلة أسبوع أتنفس بارتياح ويداعب الهواء النقي جوفي، لكن وفور أن أقترب من باب المنزل وهناك غيمة سوداء قاتمة تستعمر قلبي، طاردة كل مشاعر الراحة والهدوء اللذين لازماني، ليسيطر ذات الشعور بالغصة في قلبي، وعلى هذا الحال يوميًّا وحتى أخرج، حتى أبواي لم تتركهما اللعنة وشأنهما، نالت منهما بطريقة قاسية، فلقد كانا

متحابان جدًّا، كنت أجلس بينهما أشعر بدفء مشاعرهما التي تغمرني، كانا متفاهمين جدًّا منذ أن أصبحت أعي مثل هذه الأمور، ولكن كل شيء تغير فجأة ودون أي مقدمات، فلقد أصبحا لا يطيقا الجلوس معًا لبضع أيام دون افتعال شجار عنيف بينهما يصل أحيانًا لصفع أبي لأمي، وعلى الجانب الآخر أمست أمي حزينة جدًّا لا تطيق رؤية أبي، أصبحت تمقته بشدة حتى تُكيل له اللعنات كلما كان غائبًا، وفور أن يعود تدلف هي إلى حجرتها لتجلس وحيدة ساكنة كالموتى، لم يعد هناك صفاءً يجتاح صدور ثلاثتنا مثلما كُنا قديمًا، كل شيء أمسى يكسوه السواد القاتم.

حاولت التحدث مرارًا مع أبي حول تلك الكوابيس المظلمة التي أجهل سبب زيارتها لي، حتى أنني لا أذكرها فور أن أسردها على مسامعه، فقط أدرك شعورها الذي يجتاحني جيدًا، شعورًا مقبضًا، قلبي يتواثب فزعًا، أكاد لا أستطيع التنفس حتى أستيقظ صارخة من رقدتي ليقبل علي أبي يسألني عما رأيته، في كل مرة أسرد له لكنه يجهل تفسير أيًّا من هذه الكوابيس، لكنه يحاول طمأنتي دومًا ثم يُعينني على النوم مجددًا في سلام.

أصبحت أخشى الجلوس بالمنزل كثيرًا، فهناك تصرفات غريبة، نقرات أسمع حثيثها خلف الجدران، بعض الخطاوي التي أشعر بها تهرول في أرجاء المنزل كل حين، ظلال تظهر داخل غرفتي حينما أكون وحيدة، هذه الأشياء تظهر فجأة فلم تكن متواجدة من قبل، وللأسف لا يراها أو يشعر بها سواي.

منذ فترة استيقظت من نومي في الصباح، تحركت متثاقلة وأنا أترنح تجاه المرحاض، ألقيت نظرة خاطفة على غرفة أبواي المجاورة لي، وجدت بابها مغلق ومن خلفه هدوء تام، أكملت سيري حتى وجدت أبي بالمطبخ يُعد كوبًا من قهوته الصباحية، ألقيت التحية عليه فردها لي باسمًا، دلفت إلى المرحاض لدقائق قليلة ثم خرجت وكان أبي قد أعد قهوته وبدأ يرتشف أولى قطراته، تجاوزته لأذهب إلى غرفتي فقابلت باب غرفة أبواي وكان منفرجًا قليلًا لألمح من خلفه أمي تنام في سكون وجوارها أبي يغط في ثباتٍ عميق هو الآخر!

ظللت واقفة في مكاني أجحظ ببصري فيه ثم أعيد بصري إلى المطبخ فأجد أبي أيضًا يرتشف قهوته!

لم أقدر على التحمل أكثر من ذلك حتى صرخت بكل قوتي فكادت حنجرتي أن تتمزق، لأغوص بعدها في ظلامٍ سحيق.

استيقظت في غرفتي مستلقية على فراشي وأنا لا أدري كم من الوقت قد غِبت، شعرت أنه كان كابوسًا ثقيلًا كالذين يراودوني منذ فترة، لينتشلني من شرودي أبي الذي دلف من باب الغرفة ليطمئن علي، جلس جواري واحتضنني وقص علي أنني صرخت أمام باب غرفتهما في الصباح ثم وقعت مغشيًّا علي، وظللت نائمة طوال اليوم حتى شارفنا على منتصف الليل.

بمجرد أن ذكرني بما جرى في الصباح وقد عاد لي ذاك المشهد الذي تسبب في كل هذا، لأنتفض داخل حضن أبي وأسرد له حول تلك الأصوات

والنقرات التي تصدح بالجدران، الظلال التي تظهر فجأة ثم تختفي سريعًا، مرورًا بما رأيته في الصباح وحتى أُغشي علي، كنت أبكي برعبٍ حقيقي وأنا أبوح بكل هذا الذي أكنه بصدري، كان أبي بدوره ينصت لي باهتمام بالغ ويحاول طمأنتي والتهدئة من روعي.

جلس معي لفترة طويلة بجواري في الفراش وهو يربت على كتفي ثم حاول إخراجي من حالتي التي يُرثى لها، فقرر أن ندلف قليلًا إلى شرفة غرفتي، حاولت التمنع ولكني وافقت أخيرًا بعد إصراره، شعرت أني فعلًا في حاجة إلى تنسم الهواء البارد، تركني أبي أستعيد اتزاني على الفراش وذهب ليحضر لنا كوبين من الحليب الساخن ليُدفئ صدورنا، خرج من الغرفة تجاه المطبخ بينما تحاملت على نفسي وقمت أترنح إلى الشرفة، لأدخل فأجد أبي واقفًا في آخرها يدخن سيجارته ناظرًا إلى الشارع الخاوي!

شخصت ببصري فيه لينظر هو نحوي وشفتيه يرسما ابتسامة خلعت قلبي من محجره.

***

(١٣)

الغيبيات هى إحدى مجالات الأدب القديم منذ نشأته، كثير من الكُتاب أصحاب الخيالات الجامحة سردوا لنا عبر العصور بعض الحكايات الغامضة والتي تركت في أنفسنا الإحساس بالعَجْزِ من أن نفعل شيئًا لحمايتنا من هذه المُظلمات، فلقد نشأت على هذه الروايات المقبضة التي تركها أصحابها لنا بعد وفاتهم لتصبح وإلى الآن رفيقة حياتي يومًا تلو الآخر.

في بداية الأمر كنت شغوفًا بالقراءة، كنت أقرأ أي شيء تطوله يداي، حتى وقعت في كفتي إحدى روايات الرعب التي تتحدث عن جانب مظلم في ما وراء الطبيعة لكاتب غربي شهير قد ألفها منذ أمدٍ بعيد ورحل بعد ذلك، فجلست أطالعها حتى انتهيت منها في بضع ساعات متواصلة، رغم ضخامة حجمها وكثرة أحداثها المعقدة إلا أنني لم أستطع تركها قبل الانتهاء منها، ظللت تلك الليلة قابعًا بفراشي لا يغمض لي جفن أثر الخوف الذي دق قلبي مما قرأته، كان هذا الكاتب مبدع حقًّا لدرجة أشعرتني وأنا أتطلع

الصفحة تلو الأخرى كأنها حقيقة أعايشها، وهذا الأمر ما شجعني وجذبني لأطارد شتى الأعمال الغامضة وأقرأها حتى يومي هذا.

قضيت سنوات عمري ما بين مجلد وآخر أستشف طريقة كل كاتب، كنت وأنا طفلًا أزعم أن هؤلاء الكُتاب قد توفوا بطرق غامضة لأن أعمالهم انتقمت منهم، شيئًا يشبه انقلاب السحر على الساحر، حتى نضجت وأيقنت أن كل هذه الأعمال والتي تقع تحت مظلة الغيبيات متشابهة في أحداثها، أبطالها، الجو العام للرواية، حتى في بعض النهايات الحتمية، كل ما في الأمر أن الكاتب يضع روحه داخل هذا العمل، بمعنى أنه يجب أن يحكي عن كل ما يخشاه حقًّا في هذا العالم، الأمر أشبه بالأمراض المزمنة، لن يسرد لك أحدهم صعوبة إحدى هذه الأمراض بدقة بالغة إلا لو كان مصابًا بها، فذائق الألم هو الأبلغ بوصفه، لهذا أيقنت أن الروائيين الذين قدموا أعمالًا لم تكن تتحدث عن خوفهم الذاتي باءت بالفشل الذريع، ولهذا وضعت قاعدة أسير عليها طوال حياتي منذ أن بدأت كتابة أول عملٍ لي وحتى الآن، ألا وهو إن سردت شيئًا فسأسرد ما أخشى لقاؤه.

وأنا أخشى الموت!

بدأت في الكتابة بعدما وجدت أن لدي الكثير من الأفكار الغريبة التي نمت من قراءاتي المتعددة وتعج بعقلي، فلقد ملأت تلك الروايات الغامضة التي قرأتها منذ طفولتي وحتى الآن عقلي بالكثير من الأمور الغيبية التي لا أجد لها تفسيرًا، لذا قررت في بداية كتاباتي ألا أقلد ذات الأفكار التي تحدث عنها السابقون ولكنني اخترت أفكارًا مسمومة ، جديدة لم تُذكر من قبل،

حقًّا إن عالم الماورائيات لهو شاسع لا حدود له، أمورًا كثيرة غامضة يمكنها أن تدور من حولك وتعينك على إثارة عقلك بإحدى الأفكار الجديدة لتصنع حبكتك الخاصة وتبدأ بالسرد، بالفعل بدأت أولى أعمالي هكذا حتى أصبحت من أولئك الثِّقال في الكتابات الغيبية، وظل المريدين يتهافتون لما أسرده كل فترة، وها أنا الآن في عقدي السابع أكتب آخر عملٍ لي، فلقد تركت العشرات من الروايات وآن الأوان أن أعتزل الكتابة بعمل أخير يرفع شأني حتى الموت.

وما بعد الموت الذي أخشاه.

بدأت في روايتي الأخيرة منذ عام تقريبًا ولم أنتهي منها بعد، حتى أنها فاقت الثلاث مائة صفحة ولا زلت أخفي الكثير في جعبتي لم أبح به، فهذا العمل عن أكثر الأمور خيفتًا في حياتي، الموت..

ولأني أخشى هذه الكلمة من مجرد نطقها فقط حتى كادت أن تقتلني قبل موعدي فقررت أن يكن عملي الأخير يتحدث عنها، ولكن بنكهتي الخاصة، ظللت أسرد ثم أعيد صياغة الكثير من الأحداث حتى أصل للفصل الذي أختتم فيه العمل، ولكني توقفت منذ بضعة أيام.

تحدث المصادفات دائمًا من حولنا بطريقة لا نقدر على توقعها أبدًا، فأنا أؤمن بذلك جدًّا، ولكن ما لا أؤمن به أن تكون المصادفات مأخوذة من عملي الرجيم، فهذه الرواية تتحدث عن زيارة غامضة لكيان مبهم يأتي كل حين يزهق روح أحد أبطال العمل، والمصادفة هنا أنه وكلما وضعت حبكة خاصة بشخصية معينة وأسرد عنها حتى يأتي أجلها، فور موتها في

الصفحات أجد خبرًا أن أحد المحيطين بي قد توفى أثر حادث غامض، والأكثر دهشة أن الميت في الواقع تكن طبيعة حياته مشابهة جدًّا لذاك البطل بالرواية، ففي بادئ الأمر كانت أولى ضحاياي بالعمل امرأة عجوز شمطاء تكن الكراهية لأبناء حيها، تمقتهم بشدة حتى كادت أن تتمنى لهم الموت السحيق جميعًا، فقررت أن تصنع مادة سامة من نباتاتها الغامضة التي تزرعها بشرفة شقتها ثم تضع بضع قطرات منها لكل من تجد له وسيلة للتقرب منه، فقُتِل الكثير من أبناء الحي على يدها..

بعد انتهاء دورها وجدت أن جارتي العجوز التي تقبع بالدور الأول بالبناية قد توفت أثر تسمم لا تزال التحقيقات تجهل مصدره، لم أعر هذا الأمر اهتمامًا وأكملت عملي مع شخصية أخرى وهو ذاك السفاح الذي يختطف الفتيات العذارى ليغتصبهن ثم يشرب بضع قطرات من دمائهن ليصاب بالنشوة العارمة، فتقابله إحدى الجميلات البريئات ويقرر الظفر بها ولكنها تستغويه حتى تذبحه على فراشه وتتجرع كوبًا كاملًا من دماؤه في نصر.

في اليوم التالي وجدت خبرًا في إحدى الجرائد عن قضية كبيرة لأحد الشباب المغيب والذي قضى فترة طويلة بالسجون نتيجة تعرضه لبعض الفتيات أنه انتحر داخل مرحاض شقته، مستخدمًا منجلًا لقص النباتات وساحبًا إياه على رقبته، وأسفرت التحقيقات عن عدم وجود أحد معه ليلة الحادث ولا أثر لأي اعتداء من طرف آخر عليه، مما أدى إلى اللجوء لمصطلح الانتحار، بدأ الأمر يزداد حيرة معي وجرت الأفكار المتزاحمة برأسي حول ما إذا كان كل هذا من قبيل الصدفة أم أن هناك بالفعل كيانًا يحقق ما أكتبه، لذا قررت أن أسرد سطور الضحية التالية وهي فتاة في عامها

الحادي عشر كانت تمقت أمها القاسية عليها في تربيتها لتقضي عليها مستعينة بالوسادة واضعة إياها على وجهها وهي نائمة بعد أن قيدتها بإحكام، ثم تنتحر الفتاة مُلقية بنفسها من الشرفة تاركة رسالة مبهمة عن كونها تعتذر عمل لم تقترفه بيديها، وبعد عدة أيام حدثني صديقي عن شقيقته المصابة بضيق التنفس وقد توفت أثناء نومها عندما وجدوها ملقاة على وجهها في الفراش فلم تستطع سحب أنفاسها لتختنق حتى الموت.

قدمت له التعازي وقلبي يتواثب رعبًا، ألقيت بسؤالي في توجس:

-وماذا جرى لابنتها؟

رد:

-ليس لديها أطفال.

جرت الطمأنينة داخل قلبي عندما وجدت أن ما حدث سابقًا مجرد صدفة بحتة ليس إلا، ليكمل صديقي وأطلق رصاصته الأخيرة على مسامعي وهو يسرد بأسى:

-أنا السبب.

تساءلت بقلق:

-لما تقول هذا؟

بكى بحرارة لثوانٍ، ثم نطق بثقل:

-لقد أحضرت لها فتاة لتخدمها وتقضي حاجياتها، ولكن هذه المشردة انتحرت.

أعدت سؤالي وأنا أتمنى ألا يجيبه:

-ثم ماذا؟

رد باقتضاب:

-ألقت الفتاة بنفسها من الشرفة وتركت رسالة تقول فيها إن شقيقتي لم تنتحر ولكن هناك من قضى عليها، والأدهى أن هذا الشيء الذي تحدثت عنه طلب منها إلقاء نفسها بعد أن سردت كل هذا في رسالة لتضعها جوار جثة شقيقتي!

ظللت صامتًا فاغرًا فاهي ليكمل الأخير حديثه ثم يغلق الهاتف:

-أنا من أحضرت هذه الفتاة المجذوبة.. لا أعلم أي عبثٍ هذا؟

أيقنت وقتها أن كل ما أسرده داخل روايتي يتحقق في عالمي كما هو بالضبط، لذا توقفت عن الكتابة ولكن بعد أن ذكرت ضحيتي الأخيرة، وهي ذاك الشخص الغامض الذي يحمل قائمة بأسماء الضحايا ويقرر إنهاء أجلها بطرق مختلفة مستعينًا بكيان مبهم، وهذا الشخص بطبعه يفعل هذه الأمور الشنيعة لأنه يخشى الموت كثيرًا، وبعمله هذا يحاول القضاء على أشكال الموت المفجعة..

كنت أتكلم عن نفسي، حاولت أن أضع مذاقًا جديدًا في عملي وهو أن من يقتل الشخصيات منفذًا فيهم أحكام الإعدام دون سلطة منه عليه أن يذوق ما ذاقوا من ألمٍ سحيق، وأنا أرهقت الكثير من الأرواح الوهمية في أوراقي ليلاقوا حتفهم في الواقع، لذا علمت أنني إذا أكملت كتابة طريقة موت هذا القاتل فسيتحقق في، منذ وقتها وأنا ابتعدت عن هذا العمل الإجرامي، رتبت

مجموعة الأوراق ووضعتها بإحدى أدراج المكتب وأغلقته بإحكام ثم رحلت عن الغرفة برمتها وأنا أحاول أن أتناسى ما جرى، حتى منذ أيام قادتني خُطاي إلى الغرفة لأفتح درج مكتبي وألقي ببصري على أوراق الرواية، فأجدها كما هي.

ألقيت نظرة على الصفحة الأخيرة حيث توقفت لأجد جملة واحدة فقط في منتصفها:

-"أكمل نهايتك بيدك أو أكملها لك!".

***

(١٤)

جارتي التي كانت تسكن في الشقة المقابلة لنا غامضة جدًّا، منذ أن استأجرت الشقة من حوالي عامين وهي لا تخرج منها أبدًا، لا أراها تدلف خارج عتبات المنزل، وإنما تكتفي بأن تقف أمام باب شقتها كل فترة لتنظر لي بطريقة غريبة أجهلها، لم تكن تتودد إلى أحد من الجيران بالبناية، تفضل العُزلة، الصمت، كلما مررت من أمام باب شقتها أشعر وكأن هناك ثِقلًا يسكن جوفي ليطبق على أنفاسي، جميعنا في البناية نتحاشاها، لا نرغب في رؤيتها، بالنسبة لي عندما أقابلها في بداية يومي أمام عتبات الشقة يكون هذا نذير شؤم، هي وحيدة عجوز تتوشح بالسواد دائمًا، لم تتحدث معي قط حتى وإن قابلتها صدفة على درجات السلم، فقط ترمقني بنظراتها المقبضة حتى أبتعد عنها.

بطبيعتي أخشى القرب من هذه الفئة من البشر الذين يتركون داخلي إحساسًا بالانقباض، ولكن فضولي منعني من أن أتجنب الدنو منها أو العبث معها، كانت مجرد أن تخطر ببالي أظل أبحث عن كل تفصيلة

تخصها، فلا أسمع صوت التلفاز يعمل بالداخل ولو لمرة، لا أثر لحركة كباقي البشر في منازلهم، لم تخرج يومًا كيس قمامتها كما أفعل أنا وسكان البناية كل يوم، حتى إنها لا تخرج لشراء حاجيات منزلها من أطعمة وشراب، فكيف لها أن تعيش هكذا دون مقومات الحياة الأساسية.

لكن الغريب في الأمر أن سكان البناية لم يبدوا انزعاجهم منها كما فعلت، بل إنهم لم يتحدثوا عنها ولو لمرة واحدة، وكأنها لا تعيش معنا في نفس البناية ولا تثير الريبة في قلوبهم كما يحدث معي، حتى أنني في مرة من المرات كنت أجالس إحدى جاراتي نرتشف كوبين من الشاي ونتحدث عن كل شيء في حياتنا، حتى جذبنا الحديث لأسرد لها بعض الأمور التي تؤرقني حول تلك الجارة المخيفة، كانت تنظر لي جارتي بينما أحكي بقلق، وصلتُ لمرحلة سب اللعنات على تلك العجوز وعلى مالك البناية الذي وافق على استئجار هذه الشقة لمثل هذه الغامضة التي لا نعرف عنها شيئًا بتاتًا، لكن جارتي فور أن انتهيت من الحكي قررت الرحيل في عجالة دون كلمة أخرى، حاولت أن أُثنيها ما إذا كنت أزعجتها بحديثي الغاضب ولكنها آثرت الصمت ورحلت، حينها لم أفهم لما كل هذه الربكة التي أصابتها بمجرد أن أتيت بذِكر العجوز.

قررت أن أشبع فضولي الذي يقتلني وأذهب إلى المالك الذي يقطن بالدور الأخير من البناية لكي أسأله حول هذه الجارة ولما تتصرف بتلك الغرابة، وعندما جلست معه وسألته عنها نظر لي بتشكك وأردف:

-عن من تتحدثين؟

تعجبت من عدم تذكره فاضطررت للإيضاح أكثر:

-عن تلك الجارة التي تقطن بالشقة المقابلة لي، إنها بالدور الرابع.

زادت علامات البلاهة على وجهه ليتساءل:

-أتقصدين الشقة المهجورة؟

أجبته وقد تهللت أساريري أنه أخيرًا استجمع ذاكرته:

-نعم هي.. ولكنها ليست مهجورة الآن.. هذه الجارة تعيش بها منذ فترة طويلة.

امتقع وجهه هذه المرة واحتد صوته:

-هل جئتِ إلى هنا لتمزحي معي أيتها المرأة؟

أردفت بعدم فهم:

-ماذا جرى.. أنا لم أقصد أي إهانة.

قاطعني وهو يستشيط غضبًا:

-هذه الشقة لم يسكنها أحد منذ أعوام عندما رحلت مستأجرتها السابقة!

زاد الأمر من قلقي لأستطرد بدون فهم:

-ماذا.. كيف هذا؟

ومن هي تلك المستأجرة التي رحلت؟

أجابني باقتضاب:

-امرأة عجوز تحمل ذات الصفات التي تذكرينها الآن، وقد رحلت قبل أن تأتي أنتِ للاستئجار!

تركته وأنا لا أصدق ما سرده لي، كيف لهذا أن يحدث فأنا أراها كل حين، نعم منذ أن استأجرتُ شقتي وهذه الشقة فارغة ولكن هذه العجوز قد سكنتها بالفعل، لقد مر عامين تقريبًا وأنا أراها تمكث قُبالتي، فكيف للمالك أن يزعم بأن الشقة مهجورة منذ زمن، بل الأدهى أن ساكنتها السابقة كانت تملك ذات الصفات، الوشاح الأسود، الصمت المطبق في حياتها، العَجْز البادي على جسدها الواهن وتجاعيد وجهها..

ألهذا الأمر لم يكن سكان البناية يشتكوا منها مثلي؟!

هبطت درجات السلم حتى وصلت إلى باب شقتي، ألقيت ببصري على باب الشقة المجاورة فوجدته مغطى بالغبار الكثيف وهناك قفل عتيد صدئ يحكم الباب!

دلفت إلى شقتي وأنا أترنح مما قاله المالك وما رأيته بأم عيني، هل هذه كلها مجرد خيالات، ولماذا تظهر لي وحدي، فأنا لا أعرف هذه المستأجرة ولم أقابلها في حياتي قط.

جلست داخل غرفة نومي على حافة الفراش أنزع عني ثيابي أمام المرآة، وجدت تلك العجوز تقف جواري!

***

جزيل الشكر إلى:

-والدتي.. صاحبة كل الفضل علي بعد الله عز وجل.

-والدي.. دُمت لي سندًا.

-أصدقائي الأعزاء.. (أحمد ناصر – محمد سالم – شهاب الدين عمر).

-أساتذتي الكرام الذين تبنوا أفكاري لأنتج كل مرة أفضل مما سبق.. (جمال سليمان – محمد جلال).

-دار ببلومانيا وبوك بوتيك.. لوجودي الراحة والطمأنينة معهم.

-لهؤلاء الذين لم يعجبهم ما كتبته من قبل مُعللين أني لا أصلح لمثل هذه الأشياء.. ربما أنال إعجابكم هذه المرة.

***

الكاتب في سطور:

مصطفى جمال

كاتب وروائي من مواليد ١٩٩٦م بمحافظة سوهاج، حاصل على ليسانس التربية في اللغة الإنجليزية، صدرت له عدة أعمال وهي:

١-كتاب بعنوان "من أول السطر" عام ٢٠١٨م

٢-مجموعة قصصية بعنوان "عَبَثْ" عام ٢٠٢٠

٣-رواية بعنوان" منزل ٥٤" عام ٢٠٢٠

٤-مجموعة قصصية بعنوان "ثالوث" عام ٢٠٢٠

٥-كتاب مشترك بعنوان "الصَفْعَة" عام ٢٠٢٠

٦-رواية بعنوان "عَينُ الرب" في صيف ٢٠٢٠

٧-كتاب مشترك بعنوان "لحظة حُرية" عام ٢٠٢٠

٨-كتاب مشترك بعنوان "عزيزي كوفيد ١٩" عام ٢٠٢٠

٩-كتاب بعنوان "مُستَهْلَك" عام ٢٠٢٠

١٠- كتاب مشترك بعنوان "العنصرية" عام ٢٠٢٠

١١-كتاب مشترك بعنوان "دفتر يومياتي" عام ٢٠٢٠

١٢-وتعد المجموعة القصصية بعنوان "أركانوم" العمل السابع له.

١٣-رواية بعنوان "ماريا" تحت الطبع.

١٤-رواية بعنوان "ملون بالأسود" تحت الطبع والمشاركة في معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠٢١

***